الباب الثالث

موقف الإسلام من عقيدة الخلاص فى المسيحية

ويشتمل على ثلاثة فصول :-

الفصل الأول :ـ موقف الإسلام من أكل آدم من الشجرة.

الفصل الثانى :ـ موقف الإسلام من تحمل الإنسان لأوزار غيره.

الفصل الثالث :ـ القول الحق فى عيسى بن مريم.

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

لقد تبين لنا أن عقيدة الخلاص المسيحية تقوم على أساس أن آدم أخطأ وأنه بخطيئته انفصل وبعد عن الله سبحانه وتعالى.

ثم إن هذه الخطيئة ـ كما يدعون ـ لم تختص به وحده بل انتقلت بالوراثة إلى جميع أبنائه إلى الجنس البشرى كله فالبشر جميعهم مخطئون بالطبيعة الموروثة من آدم.

وهؤلاء البشر ـ كما يقولون ـ لا يستطيعون التخلص من هذه الخطيئة بأنفسهم.

ولما كان الله متصفا بالمحبة والرحمة وهب المسيح ابنه ـ كما يعتقدون ـ ليصلب فداء عن البشرية ولقد تبين لنا أن هذه العقيدة ينقصها الأدلة الواضحة التى تطمئن إليها النفس ويؤمن بها الفكر والعقل، حيث إن أدلة هذه العقيدة التى أوردها القوم قد اعتراها التناقض والتضارب الذى يسقط الاستدلال هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن هذه العقيدة تناقض الفطر السليمة والأفكار الصحيحة. فالفطر السليمة تقر بإيمان الله الواحد الأحد العادل الذى لا يحاسب إنسانا على ذنب ارتكبه غيره.

والقرآن الكريم الذى حفظه الله من التغيير والتبديل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر الآية : ٩) والذى له الهيمنة على الكتب السابقة ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ (المائدة الآية: ٤٨) يبين لنا القول الحق والمنهج الصحيح للرسالات السماوية، يبين القرآن الكريم أن الإنسان يولد على الفطرة السليمة مبرأ من كل خطيئة موروثة يقول سبحانه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ

ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ (سورة الأعراف الآية : ١٧٢). ويقول الرسول ﷺ كل مولود يولد على الفطرة[١].

ويبين القرآن الكريم أن رسالة الأنبياء والرسل هى التوحيد الخالص.

يقول سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء الآية: ٢٥) وقوله ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل الآية: ٣٦). إلى غير ذلك من الآيات الواضحة التى تؤكد أن الهدف من الرسالات السماوية هو إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى المتصف بالعدل الذى لا يحاسب إنسانا على ذنب ارتكبه غيره.

يقول سبحانه ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت الآية: ٤٦) وعلى ذلك فإن حديثنا عن موقف الإسلام من عقيدة الخلاص المسيحى يتلخص فيما يأتى: ـ

١ ـ موقف الإسلام من أكل آدم من الشجرة.

٢ ـ موقف الإسلام من تحمل الإنسان لأوزار غيره.

٣ ـ القول الحق فى عيسى بن مريم.

وهاك البيان:

---

١ أخرجه البخارى فى الصحيح/كتاب: الجنائز/ باب : ما قيل فى أولاد المشركين، ومسلم فى الصحيح/كتاب : القدر/باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، وأبو داود فى السنن/كتاب: السنة/باب: فى ذرارى المشركين، والترمذى/كتاب: القدر/باب: ما جاء كل مولود يولد على الفطرة.

الفصل الأول

موقف الإسلام
من أكل آدم من الشجرة

obeikandl.com

obeikandl.com

آدم وكيف أكل من الشجرة

إن القرآن الكريم يخبرنا بأن الله سبحانه وتعالى خلق آدم من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها، وكان الله سبحانه وتعالى قد أخبر ملائكته بأنه سيخلق بشرا من طين وأمرهم بالسجود له تعظيما له وتكريما وتشريفا فامتثل جميع الملائكة [١]. إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين فغضب الله عليه وطرده من رحمته. وبعد ذلك قال الله لآدم: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(البقرة الآية: ٣٥).

وحذرهما الله سبحانه وتعالى من أن يفتنهما الشيطان

يقول سبحانه وتعالى ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه الآية: ١١٧) ولكن الشيطان استطاع أن يستدرجها إلى ما أراد لهما من الأكل من الشجرة وأغراهما بأنواع المغريات.

وقال لهما:

١ ـ ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ (الأعراف الآية: ٢٠). يقول ابن كثير فى تفسير ذلك: (وقال) كذبا وافتراء (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين) أى لئلا تكونا ملكين أو خالدين هاهنا ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك كقوله ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (طه الآية: ١٢٠) أى لئلا تكونا ملكين [٢].... والترغيب كان فى مجموع الأمرين أو فى أحدهما) [٣].

---

(١) اختلف العلماء حول كون إبليس من الملائكة أم لا؟ البعض يرى أنه من الملائكة استنادا إلى قوله سبحانه (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين" والبعض يرى أنه من الجن لقوله تعالى﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ راجع البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص ٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٠٥.

(٣) مفاتيح الغيب جـ١٤ ص ٥٢.

٢ ـ ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (الأعراف الآية: ٢١).

(أى حلف لهما بالله (إنى لكما لمن الناصحين) فإنى من قبلكما هاهنا وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زهير ابن عم أبى ذؤيب:

وقاسمهم بالله جهدا لأنتم ... ألذ من السلوى إذا ما نشورها

أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله.

وقال قتادة فى الآية حلف بالله أنى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكم فاتبعان أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول من خدعنا بالله انخدعنا له)[١].

ويقول الفخر الرازى فى معنى هذا القول من إبليس الذى يحكيه القرآن (أى وأقسم لهما أنى لكما لمن الناصحين.

فإن قيل: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك تقول: قاسمت فلانا أى حالفته وتقاسما تحالفا، ومنه قوله تعالى ﴿ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ (النمل الآية: ٤٩). قلنا فيه وجوه: الأول: التقدير أنه قال: أقسم لكما أنى لكما لمن الناصحين. وقالا له: أتقسم بالله إنك لمن الناصحين؟ فجعل ذلك مقاسمة بينهم.

والثانى: أقسم لهما بالنصيحة وأقسما له بقبولها.

والثالث: أنه أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم[٢].

والوجه الثالث هو الأرجح فى نظرنا؛ لأن إبليس حاول بكل الوسائل إخداع آدم وحواء، وكان من وسائل الإغراء قسمه لهما بالله، واجتهد إبليس فى هذا القسم اجتهاد المقاسم فقال لهما إنى خلقت قبلكما وأنا أعلم أحوالا كثيرة من المصالح والمفاسد لا تعرفانها فامتثلا قولى أرشدكما، وأقسم لهما على ذلك.

٣ ـ فدلاهما بغرور

ذكر أبو منصور الأزهرى لهذه الكلمة أصلين: ـ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٠٦.
(٢) مفاتيح الغيب جـ١٤ ص ٥٢.

أحدهما: أصل الرجل العطشان يدلى رجليه فى البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيه ماء فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه، فيقال: دلاه إذا أطعمه.

والثانى: (فدلاهما بغرور) أى أجرأهما إبليس على أكل الشجرة بغرور. والأصل فيه دللهما من الدل والدالة وهى الجرأة.

قال ابن عباس (فدلاهما بغرور) أى غرهما باليمين وكان آدم يظن أن أحدا لا يحلف بالله كذبا.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما: أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعقته فكان عبيده يفعلون ذلك طلبا للعتق. فقيل له: إنهم يخدعونك فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له)[1].

من هذه النصوص نعلم أن إبليس مصر على الإيقاع بآدم وحواء، ولم يترك وسيلة لايقاعهما فى الأكل من الشجرة إلا وسلكها حتى أنزلهما من استمساكهما بما أباح الله لهما إلى الأكل من الشجرة بسبب غروره لهما وخداعه إياهما إذ فتح لهما الخبيث باب التفكير فى موضوع الشجرة المحرمة وجعل يكرر لهما الإغراء بالأكل منها، ويزعم أنهما إن أكلا منها كانا ملكين أو كانا من الخالدين، وأقسم أنه ناصح لهما ولم يزل يخدعهما ويغرهما حتى أنزلهما عن الاستمساك بما أباح الله لهما إلى تجاوزه بالأكل من الشجرة المحرمة. ولابد أن هذا الإغراء استمر مدة طويلة وهما يمتنعان حتى تم له ما أراد[2]. ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف الآية: ٢٢).

قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ..... ﴾ وذلك يدل على أنهما تناولا اليسير قصدا إلى معرفة طعمه، ولولا أنه تعالى ذكر فى آية أخرى [3] أنهما أكلا منها لكان ما فى هذه الآية لا يدل على الأكل لأن الذائق قد يكون ذائقا دون أكل. ثم قال الله

---

(١) المرجع السابق جـ ١٤ صـ٥٣.
(٢) مصطفى الطير: أقباس من نور الحق جـ٢ ص ١٦١.
(٣) آية ١٢١ سورة طه ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾.

تعالى ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ..... ﴾ أى ظهرت عوراتهما وزال النور عنهما (وطفقا يخصفان) قال الزجاج: معنى طفق: أخذ فى الفعل (يخصفان) أى يجعلان ورقة على ورقة، ومنه قيل للذى يرفع النعل خصاف، وفيه دليل على أن كشف العورة قبيح من لدن آدم، ألا ترى أنهما كيف بادرا إلى التستر لما تقرر فى عقولهما من قبح كشف العورة. (وناداهما ربهما) قال عطاء: بلغنى أن الله ناداه أفرارا منى يآدام؟ قال: بل حياء منك يارب ما ظننت أن أحدا يقسم باسمك كاذبا، ثم ناداه ربه أما خلقتك بيدى!! أما نفخت فيك من روحى!! أما أسجدت لك ملائكتى!! أما أسكنتك فى جنتى فى جوارى!! ثم قال الله وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين)[١]. ثم إن آدم بعد أن أكل من الشجرة أشرقت فطرته فتبين له ما أتى فلم يتمالك نفسه فتضرع إلى الله سبحانه هو وحواء ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف الآية: ٢٣) إذن فآدم وحواء أكلا من الشجرة التى نهاهما الله عن القرب منها.

فهل هذا عصيان؟ وما نوع هذه المعصية؟

قبل أن نجيب على هذين السؤالين علينا تكملة للبحث أن نذكر باختصار شديد: آدم هل هو نبى أم لا؟ وإذا كان نبيا فهل معصيته قبل النبوة أم بعدها؟ وما نوع هذه المعصية؟

سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة فيما يأتى:

نبوة آدم ورسالته

من المقطوع به أن (آدم) عليه السلام كان نبيا[٢]، ذلك أن القرآن الكريم ذكر أن الله خاطبه بلا واسطة، وشرع له فى ذلك الخطاب، فأمره ونهاه وأحل له وحرم عليه بدون أن يرسل إليه رسولاً، وهذا هو كل معانى النبوة[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١٤ ص ٥٣ .

(٢) محمد على الصابونى: النبوة والأنبياء ص١٢٤، راجع أيضا (قصة آدم فى القرآن وما دار حولها من شبهات) رسالة دكتوراة للدكتور على محمد نصر ٢٦٥.

(٣) الشيخ عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص١٠.

يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار: وأما رسالته فالأمر مختلف فيها وشأننا أن نفوض علم ذلك إلى الله تعالى [١] ولقد ناقش د/ على محمد نصر فى رسالته للدكتوراة هذا القول فقال:

ليت شعرى أى اختلاف فى رسالة آدم عليه السلام وإجماع الأمة من سنيين وشيعة ومعتزلة على وجوب الإيمان بنبوته ورسالته كغيره من بقية الأنبياء والمرسلين) [٢].

ثم قال: إن القرآن الكريم ذكر رسالة آدم عليه السلام فى قول الله سبحانه وتعالى فى سورة غافر: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر الآية: ٧٨) وآدم عليه السلام قد تقدم ذكره فى قصته فيما نزل من السور قبل هذه السورة. وهذه السور هى (ص) ثم (الأعراف) ثم (طه) ثم (الإسراء) ثم (الحجر).

إن الله تعالى أكرم من أن يدع الإنسانية فى عهدها وطفولتها بدون نبى رسول ينظم حياتها ويوضح عقيدتها ويوجهها إلى الله تعالى بالعبادة والتوحيد وهى فى أشد الحاجة إلى ذلك، أليس ذلك المجتمع الصغير الذى تناسل من آدم عليه السلام وزوجه حواء وكثر كثرة واضحة فى حاجة إلى من ينظمه ويشرع له ويبين له طريق الخير وطريق الشر؟ أليس فى حاجة إلى قوانين تنظيم علاقاته فيما يأتى ويذر من شئون الحياة الأسرية والاجتماعية وشئون التملك والانتفاع وشتى مجالات الحياة الدينية والدنيوية؟ إن خلافة آدم عليه السلام تقتضى كونه نبيا ورسولا إذ معناه الحكم [٣] بين الناس بالعدل وتنفيذ أوامر الله تعالى ونهيه بين أفراد مجتمعه الصغير، وبماذا يحكم إن لم يكن نبيا ورسولا صاحب شريعة من الله؟

وأيضا فإن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر الآية: ٢٤) ولئن كانت الأمم فى حاجة إلى نذير فإن أحوجها إلى النذير أمة عمرت فى الأرض أول ما عمرت وأن الله بالناس لرؤوف رحيم [٤].

---

(١) المرجع السابق ص ١١.
(٢) قصة آدم فى القرآن الكريم وما دار حولها من شبهات ص ٢٦٧.
(٣) ويدل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ (ص الآية: ٢٦).
(٤) المرجع السابق ص ٢٧٦.

ويدل على ذلك أيضا قول القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران الآية: ٣٣) والظاهر من الآية أن المراد الاصطفاء بالنبوة والرسالة[١]. وعن أبى ذر رضى الله عنه قال: قلت يارسول الله أرأيت آدم أنبيا كان؟ قال نعم نبيا ورسولا يكلمه الله قبيلا[٢]. أى عيانا بدون واسطة.

ولقد ذكر ابن كثير فى تفسيره هذا الحديث فقال: روى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبى ذر قال: قلت يارسول الله. إلى آخر الحديث باللفظ السابق[٣].

وعلى ذلك فآدم نبى ورسول من عند الله سبحانه وتعالى. والنبوة والرسالة تقتضى العصمة، فإن العصمة واجبة للأنبياء والرسل.

عصمة الأنبياء والرسل

والعصمة فى اللغة: مطلق الحفظ.

واصطلاحا: حفظ الله للمكلف من الذنب مع استحالة وقوعه[٤].

والعصمة واجبة للأنبياء والرسل من المنفرات بمعنى (حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى، فهم محفوظون ظاهرا من الزنا وشرب الخمر والكذب وغير ذلك من منتهيات الظاهر. ومحفوظون باطنا من الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منتهيات الباطن والمراد المنهى عنه ولو صورة. **فهو يشمل ما قبل النبوة ولو فى حال الصغر ولا يقع منهم مكروه ولا خلاف الأولى بل ولا مباح على وجه كونه مكروها أو خلاف الأولى أو مباحًا.**

---

(١) راجع النبوة والأنبياء ص ١٢٥.

(٢) ذكر السيوطى أنه أخرجه الطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه (الدر المنثور جـ١ ص ٥١ طبعة طهران سنة ١٣٧٧ هـ) وذكر أنه أخرجه أحمد والبخارى فى تاريخه والبيهقى فى الشعب كما أخرجه ابن أبى مشيبة والطبرانى عنه. أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط ٤/٣٠٠/٣٠١ حديث ٤٢٥٩، ٧/٢٢٤ .حديث ٧٣٣٥، وله شاهد عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه أخرجه الطبرانى أيضا فى الأوسط ١/١٢٨ حديث ٤٠٣، ط/دار الحرمين. القاهرة. ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م. تحقيق: طارق عوض الله محمد، عبد المحسن إبراهيم الحسينى.

(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ١ ص٧٨.

(٤) شرح البيجورى على الجوهرة ص ١٥٦ .

وإذا وقع صورة لذلك فهو للتشريع فيصير واجبا أو مندوبا فى حقهم فأفعالهم عليهم الصلاة والسلام دائرة بين الواجب والمندوب بل فى الأولياء الذين هم أتباعهم من يصل لمقام تصير حركاته وسكناته طاعة بالنيات وبهذا اندفع ما يقال قد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم توضأ مرة مرة ومرتين مرتين وبال قائما وشرب قائما. أما المحرم فلم يقع منهم إجماعا. وما أوهم المعصية فمؤول بأنه من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ولا يجوز النطق به فى غير مورده إلا فى مقام البيان)[١].

هذا هو القول العام فى عصمة الأنبياء.

ولقد ذكر العلماء ذلك بتفصيل وقسموا ما يجب عصمة الأنبياء عنه إلى ما يأتى:

أ ـ القول فى عصمة الأنبياء عن الكذب

يقول الإيجى (أجمع أهل الملل والشرائع على عصمته عن تعمد الكذب فيما دل المعجز على صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله. وفى جواز صدوره عنهم على سبيل السهو والنسيان خلاف، فمنعه الأستاذ أبو إسحاق الأسفراينى وكثير من الأئمة، وجوزه القاضى أبو بكر الباقلانى مصيرا منه إلى عدم دخوله فى التصديق المقصود بالمعجزة)[٢].

فيستحيل صدور الكذب عن الأنبياء عمدا وبخاصة فى دعوى الرسالة وتبليغ الأحكام أما سهوا ففيه خلاف (والراجح أنه أيضا يستحيل صدوره سهوا، ذلك لأنه لو جاز عليهم فى واحدة من هاتين حتى ولو سهوا لما كانت هناك ثقة فيما جاءوا به من شرائع فتبطل الحكمة من بعثتهم)[٣].

والدليل على وجوب صدقهم عليهم السلام أنهم لو لم يصدقوا للزم الكذب فى خبره تعالى لتصديقه تعالى لهم بالمعجزة النازلة منزلة قوله تعالى (صدق عبدى فى

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٨، ١٣٩.

(٢) المواقف ص ٣٥٨.

(٣)د/عبد السلام محمد عبده، د/نجاح الغنيمى: فلسفات من العقيدة الإسلامية ص ١٤٩.

كل ما يبلغ عنى) وتصديق الكاذب كذب وهو محال فى حقه تعالى، فملزومه وهو عدم صدقهم محال، وإذا استحال عدم صدقهم وجب صدقهم وهو المطلوب[١].

ب: القول فى عصمة الأنبياء عن الكفر:

(أما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم منه، غير أن الأزارقة من الخوارج جوزوا عليهم الذنب وكل ذنب عندهم كفر، وجوز الشيعة إظهاره تقية، وذلك يفضى إلى إخفاء الدعوة إذ أولى الأوقات بالتقية وقت الدعوة للضعف وكثرة المخالفين)[٢].

فالأنبياء معصومون من الكفر، والدليل على ذلك إجماع أهل الشرائع والملل على وجوب عصمة الأنبياء من الكفر قبل البعثة وبعدها فقد اصطفت السماء رجالها لنفسها وأحاطتها بعنايتها ورعايتها منذ كانوا فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات)[٣].

جـ ـ القول فى عصمة الأنبياء عن الكبائر

يقول الإيجى (أما الكبائر عمدا فمنعه الجمهور والأكثر على امتناعه سماعا.

وقالت المعتزلة ـ بناء على أصولهم ـ يمتنع ذلك عقلا، أما سهوا فجوزه الأكثرون)[٤] ذلك أنهم لو صدر منهم فعل الكبيرة لكان فعلها طاعة مأمورًا بها مع كونها من الفحشاء والله لا يأمر بالفحشاء فيكون فعلها مأمورا به غير مأمور به وهو محال لأنه جمع بين النقيضين[٥].

وكذلك أيضا لو جاز منهم ارتكاب المنهى عنه لم يوثق بقولهم فلا يلزم الحجة[٦].

---

(١) شرح البيجورى على الجوهرة ص ١٤٠.

(٢) المواقف ص ٣٥٨، ٣٥٩، راجع أيضا: البداية من الكفاية فى الهداية فى أصول الدين للإمام نور الدين الصابونى ص٩٦، عصمة الأنبياء للفخر الرازى ص ٧.

(٣) فلسفات من العقيدة الإسلامية ص ١٥٠.

(٤) المواقف ص ١٥٠.

(٥) فلسفات من العقيدة الإسلامية ص ١٥٠.

(٦) البداية من الكفاية فى الهداية ص ٩٦.

د ـ القول فى عصمة الأنبياء عن الصغائر

يقول الإيجى (أما الصغائر عمدا فجوزه الجمهور إلا الجبائى، وأما سهوا فهو جائز اتفاقا إلا الصغائر الخسية كسرقة حبة أو لقمة، وقال الجاحظ بشرط أن ينبهوا عليه فينتهوا عنه، وقد تبعه فيه كثير من المتأخرين وبه نقول)[١].

فالصغائر فسمان ما يشعر بخسة كسرقة تافهة كسرقة حبة أو لقمة فيستحيل صدوره عن الرسل عمدا أوسهوا لأن صدوره منهم يوجب النفرة منهم والبعد عن الاقتداء بهم واتباعهم[٢]. أما الصغائر التى لا تشعر بخسة كعدم إلقاء السلام مثلا فرأى الجمهور أنه يجوز وقوع هذه الصغائر عمدا أو سهوا، أما الجبائى فقال: إنه لا يجوز منهم تعمد الصغيرة، ولكن يجوز صدور الذنب منهم على سبيل الخطأ فى التأويل. وهناك رأى آخر وهو قول الجاحظ وكثير من المتأخرين (أنه لا يجوز صدور الكبيرة ولا الصغيرة، لا تعمدا ولا بالتأويل الخطأ، أما السهو والنسيان فجائزان عليهم، ثم إنهم يعاتبون على ذلك السهو والنسيان لما أن علومهم أكمل فكان الواجب عليهم المبالغة فى التيقظ والتحفظ)[٣].

أقوال العلماء فى العصمة قبل البعثة

هذا كله بعد الوحى أما قبله، فقال الجمهور: لا يمتنع أن يصدر عنهم كبيرة إذ لا دلالة للمعجزة عليه ولا حكم للعقل. وقال أكثر المعتزلة: تمتنع الكبيرة وإن تاب منها لأنه يوجب النفرة وهى تمنع عن اتباعه فتفوت مصلحة البعثة.

ومنهم من منع عما ينفر مطلقا كعهر الأمهات والفجور فى الآباء والصغائر الخسية دون غيرها. وقالت الروافض: لا يجوز عليهم صغيرة ولا كبيرة فكيف بعد الوحى[٤].

---

(١) المواقف ص ٣٥٩.

(٢) فلسفات من العقيدة الإسلامية ص ١٥١.

(٣) عصمة الأنبياء ص٨.

(٤) المواقف ص ٣٥٩، عصمة الأنبياء ص٨.

obeikandl.com

الأدلة العقلية والنقلية على وجوب العصمة للأنبياء.

ولقد ذكر العلماء أدلة كثيرة لوجوب عصمة الأنبياء نذكر منها[١]:

الأول: أنه لو صدر عنهم الذنب لحرم اتباعهم وأنه واجب للإجماع ولقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١).

الثانى: لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم عاجلا والعقاب آجلا أشد من حال عصاة الأمة وهذا باطل، فصدور الذنب عنهم أيضا باطل.

بيان الملازمة أن أعظم نعم الله على العباد إعطاء نعمة الرسالة والنبوة وكل من كان نعم الله عليه أكثر كان صدور الذنب عنه أفحش، وصريح العقل يدل عليه، ثم يؤكده من النقل. وجوه: أحدها: قوله تعالى ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب الآية: ٣٠).

وثانيهما: أن المحصن يرجم وغيره يجلد.

وثالثهما: العبد يحد نصف حد الحر.

فثبت بما ذكرنا أنه لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم العاجل والعقاب الآجل فوق حال جميع عصاة الأمة إلا أن هذا باطل بالإجماع فإنه أحدا لا يجوز أن يقال إن الرسول أخس حالا عند الله وأقل مرتبة ومنزلة من كل واحد من اللصوص والزنوج وهذا يدل على عدم صدور الذنب عنهم.

الثالث: لو صدر الذنب عنهم لما كانوا مقبولى الشهادة لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ (سورة الحجرات الآية: ٦). أمر بالتثبت والتوقف فى قبول شهادة الفاسق. إلا أن هذا ـ عدم قبول شهادتهم ـ باطل فإن من لم تقبل شهادته فى الحبة. أو فى القليل من متاع الدنيا ـ كيف تقبل شهادته فى الأديان الباقية إلى يوم القيامة؟

الرابع: لو صدر عنهم الذنب لوجب زجرهم لعموم وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لكن زجر الأنبياء عليهم السلام غير جائز وإيذاؤهم حرام

---

(١) راجع الموقف ص ٣٥٩، ١٦٠، ٣٦١، عصمة الأنبياء ص ٨ ـ ١٢، مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٨، ٩، ١٠.

إجماعا لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (سورة الأحزاب الآية: ٥٧). فكان صدور الذنب عنهم ممتنعا.

الخامس: لو صدرت المعصية عن الأنبياء عليهم السلام لوجب أن يكونوا موعودين بعذاب جهنم لقوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ (سورة الجن الآية: ٢٣).

ولكانوا ملعونين لقوله تعالى ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة هود الآية: ١٨).

وبإجماع الأمة هذا باطل فكان صدور المعصية عنهم باطلا.

السادس: أنهم كانوا يأمرون بالطاعات وترك المعاصى فلو تركوا الطاعة وفعلوا المعصية لدخلوا تحت قوله ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الصف الآية: ٢، ٣) وتحت قوله تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٤٤).

ومعلوم أن هذا فى غاية القبح، وأيضا أخبر الله عن رسوله أنه برأ نفسه عن ذلك فقال ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ (سورة هود الآية: ٨٨).

والسابع: أنه تعالى قال فى صفة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٩٠) والألف واللام فى صيغة الجمع تفيد العموم، فدخل تحت لفظ الخيرات فعل كل ما ينبغى وترك كل ما لا ينبغى وذلك يدل على أنهم كانوا فعالين لكل طاعة تاركين لكل المعاصى.

الثامن: قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ (سورة ص الآية: ٤٧).

وهذان اللفظان أعنى (المصطفين) وقوله (الأخيار) يتناولان جملة الأفعال والتروك بدليل جواز الاستثناء، يقال فلان من المصطفين الأخيار إلا فى كذا والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فدلت هذه الآية على أنهم كانوا من المصطفين الأخيار فى كل الأمور وهذا ينافى صدور الذنب عنهم، ونظيره قوله

تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (سورة الحج الآية: ٧٥).

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٣٣) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اصطفاء الأنبياء والمرسلين.

التاسع: قوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (سورة ص الآية: (٨٢، ٨٣) استثنى المخلصين من إغوائه وإضلاله، ثم إنه تعالى شهد على إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنهم من المخلصين حيث قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ (سورة ص الآية: ٤٦). وقال فى حق يوسف ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (سورة يوسف الآية: ٢٤).

فلما أقر إبليس بأنه لا يغوى المخلصين، وشهد الله تعالى بأن هؤلاء من المخلصين ثبت أن إغواء إبليس ووسوسته ما وصل إليهم وذلك يوجب القطع بعدم صدور المعصية عنهم.

العاشر: قول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة سبأ الآية: ٢٠) فأولئك القوم الذين لم يتبعوا إبليس إما أن يقال: إنهم كانوا هم الأنبياء والرسل عليهم السلام أو غيرهم. فإن كانوا غير الأنبياء لزم أن يكونوا أفضل من الأنبياء لقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (سورة الحجرات الآية: ١٣). وتفضيل غير النبى على النبى باطل بالإجماع فوجب القطع بأن أولئك الذين لم يتبعوا إبليس هم الأنبياء عليهم السلام، وكل من أذنب فقد اتبع إبليس فدل هذا على أن الأنبياء عليهم السلام ما أذنبوا البتة.

الحادى عشر: أنه تعالى قسم المكلفين إلى قسمين:

حزب الشيطان كما قال ﴿ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (سورة المجادلة: ١٩).

وحزب الله كما قال تعالى ﴿ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة المجادلة الآية: ٢٢). ولا شك أن حزب الشيطان هو الذى يفعل ما يريده

الشيطان ويأمره به، فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء عليهم السلام والمرسلين عليهم السلام لصدق عليهم أنهم حزب الشيطان ولصدق عليهم قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ولصدق على الواحد من آحاد الأمة قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فحينئذ يلزم أن يكون كل واحد من آحاد الأمة أفضل بكثير من الأنبياء ولا شك فى بطلان ذلك.

الثانى عشر: أن الراجح أن الأنبياء أفضل من الملائكة، والملائكة ما أقدموا على شئ من الذنوب بدليل قوله تعالى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (سورة النحل الآية: ٥٠) وقوله ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٢٦، ٢٧).

فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء عليهم السلام لامتنع أن يكونوا أزيد فى الفضل على الملائكة لقوله تعالى ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (سورة ص الآية: ٢٨).

الثالث عشر: قال الله تعالى فى حق إبراهيم ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٢٤) والإمام هو الذى يقتدى به، فلو صدرت الذنوب عن إبراهيم عليه السلام لكان اقتداء الخلق بإبراهيم فى ذلك الذنب واجبا وإنه باطل.

الرابع عشر: قوله تعالى ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٢٤).

وكل من أقدم على الذنب كان ظالما لنفسه لقوله تعالى ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ (سورة فاطر الآية: ٣٢) إذا عرفت هذا فنقول ذلك العهد الذى حكم الله تعالى بأنه لا يصل إلى الظالمين إما أن يكون هو عهد النبوة أو عهد الإمامة. فإن كان الأول فهو المطلوب. وإن كان الثانى فالمقصود أظهر لأن عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوة فإذا لم يصل عهد الإمامة إلى المذنب العاصى فبأن لا يصل عهد النبوة إليه أولى.

هذه هى بعض الأدلة على وجوب عصمة الأنبياء والرسل

(هذا إلى جانب أن كل الآيات التى يمتدح الله بها أنبياءه ويزكيهم أو يأمرنا فيها باتباعهم كلها أدلة على عصمة الأنبياء عليهم السلام.

ووجه دلالتها على العصمة كما تقدم: أن الله سبحانه وتعالى زكاهم وأمرنا باتباعهم مطلقا ومن زكاه الله وأمر باتباعه اتباعا مطلقا كان معصوما وليس لأحد فيه مطعن أو مغمز)[١].

بل مجرد وصف النبى بالنبوة دليل على العصمة ولذا قال أبو حيان فى تفسير أول سورة التحريم (يا أيها النبى) نداء إقبال وتشريف وتنبيه بالصفة على عصمته وعما يقع فيه من ليس بمعصوم[٢].

أما ما أوهم ظاهره عدم العصمة: فلقد رد العلماء عليه بقولهم.

إن ما كان منقولا بالآحاد وجب رده لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصى إلى الأنبياء.

وما ثبت منه تواترا فما دام له محمل آخر حملناه على أنه كان قبل البعثة، أو من قبيل ترك الأولى، أو صغائر صدرت عنهم سهوا، ولا ينفيه تسميته ذنبا ولا الاستغفار منه ولا الاعتراف بكونه ظلما منهم، إذ لعل ذلك لعظمه عندهم أ و أن قصدوا به هضما من أنفسهم[٣]. فالأنبياء معصومون من الذنوب وما أوهم ظاهره أنه ذنب فله محمل آخر، وعلى ذلك فآدم النبى والرسول معصوم من الذنوب حيث إن العصمة واجبة له، وأما ما ثبت من أكله من الشجرة فإنه محمول على أنه كان قبل البعثة أو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين، أو أنها صغيرة صدرت منه سهوا. وسنزيد ذلك أيضاحا فيما يأتى:

رد الشبهات الواردة على عصمة آدم

ولقد ورد على عصمة آدم بعض الشبهات، وهى ترجع إلى شبهتين رئيستين:

الأولى: فى قصة زلة آدم بالأكل من الشجرة: تمسك بها المخالفون لعصمة الأنبياء[٤]. من سبعة وجوه:

---

(١) قصة آدم فى القرآن الكريم وما دار حولها من شبهات ص ٢٤٦.

(٢) تفسير البحر المحيط جـ٨ ص ٢٨٩.

(٣) المواقف ص٣٦١.

(٤) وهم الحشوية وغيرهم الذين قالوا إن الأنبياء يجوز عليهم الإقدام على الكبائر والصغائر (عصمة الأنبياء ص ٧).

والحشوية: جماعة من أهل الحديث كانوا يدعون أنهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وكانوا يتدافعون فى حلقة الحسن البصرى ويشوشون عليه فكان يقول ردوا هؤلاء إلى حشى الحلقة أى بطن الحلقة فسموا حشوية بفتح الشين أو تسكينها ومذهبهم التشبيه والتجسيم (هامش ص ٩٦ من كتاب البداية من الكفاية فى الهداية فى أصول الدين).

١ ـ أنه كان عاصيا لقوله تعالى ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (سورة طه الآية: ١٢١) وإنما قالوا إن العاصى صاحب الكبيرة لوجهين الأول: أن النص يقتضى كونه معاقبا لقوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ (سورة الجن: ٢٣) فلا معنى لصاحب الكبيرة إلا ذلك.

الثانى: أن العاصى اسم ذم فوجب أن لا يتناول إلا صاحب الكبيرة.

٢ ـ أنه كان غاويا لقوله تعالى (فغوى) والغى ضد الرشد لقوله تعالى ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٥٦)، فجعل الغى مقابلا للرشد.

٣ ـ أنه تائب والتائب مذنب، وإنما قالوا إنه تائب لقوله تعالى ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٣٧). وقال ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (سورة طه الآية: ١٢٢) وقالوا إن التائب مذنب لأن التائب هو النادم على فعل الذنب، والنادم على فعل الذنب مخبر عن كونه فاعلا للذنب، فإن كذب فى ذلك الإخبار فهو مذنب بالكذب وإن صدق فيه فهو المطلوب.

٤ ـ أنه ارتكب المنهى عنه فى قوله ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٢٢) ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٣٥). وارتكاب المنهى عنه عين الذنب.

٥ ـ سماه ظالما فى قوله ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٣٥) وهو يسمى نفسه ظالما فى قوله ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٢٣) والظالم ملعون لقوله تعالى ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة هود الآية: ١٨) ومن استحق اللعن كان صاحب كبيرة.

٦ ـ أنه اعترف بأنه لولا مغفرة الله إياه لكان خاسرا وذلك فى قوله ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٢٣) وذلك يقتضى كونه صاحب كبيرة.

٧ ـ أنه أخرج من الجنة بسبب وسوسة الشيطان وإزلاله جزاء على ما أقدم عليه من طاعة الشيطان وذلك يدل على كونه صاحب كبيرة.

ثم قالوا: هب أن كل واحد من هذه الوجوه لا يدل على كونه فاعلا للكبيرة لكن مجموعها لا شك فى كونه قاطعا فى الدلالة عليه، ويجوز أن يكون كل واحد من هذه الوجوه وإن لم يدل على الشئ لكن مجموع تلك الوجوه يكون دالا على الشئ[١].

ولقد أجاب العلماء عن هذه الشبهة بوجوهها السبعة إجمالا فقالوا:

لم لا يجوز أن يقال إنما وقعت المعصية منه قبل النبوة[٢]، الذى يدل على ذلك وجوه: الأول: قوله تعالى ﴿ **وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴾ (سورة طه الآية: ١٢١، ١٢٢) يدل على أن الاجتباء إنما حصل بعد واقعة الذنب لأن كلمة ثم للتراخى.

والثانى: لما دلت هذه الدلائل على صدور الذنب، ودلت الدلائل التى ذكرنا على أن الأنبياء عليهم السلام لا يصدر الذنب حال كونهم أنبياء لم يبق هنا وجه فى التوفيق إلا أن تحمل هذه الواقعة على ما قبل النبوة.

الثالث: أنه لو كان رسولا قبل الواقعة لكان إما أن يقال إنه رسول إلى الملائكة وهو باطل لأن الملائكة رسل الله تعالى لقوله ﴿ **جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا** ﴾ (سورة فاطر الآية: ١) والرسول لا يحتاج إلى رسول آخر.

أو إلى البشر وهو أيضا باطل لأنه ما كان معه فى الجنة من البشر إلا حواء وأن الخطاب كان يأتيهما من غير واسطة آدم بدليل قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ** ﴾ (سورة البقرة الآية: ٣٥) فإن هذا الخطاب خطاب ابتداء.

أو كان رسولا من غير مرسل إليه وهو أيضا باطل قطعا. فثبت أنه عليه السلام قبل هذه الواقعة ما كان موصوفا بالرسالة والنبوة[٣]. هذا هو ما أجاب به العلماء إجمالا على الشبهة **ولقد أجابوا عن هذا الشبهة بوجوهها السبعة تفصيلا بما يلى:-**

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٣ ص ١١، ١٢، المواقف ص ٣٦١.
(٢) المواقف ص ٣٦١.
(٣) فخر الدين الرازى: عصمة الأنبياء ص١٩.

فأجابوا عن الوجه الأول فقالوا: المعصية مخالفة الأمر، والأمر قد يكون بالواجب أو الندب، فإنهم يقولون: أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى، وأمرته بشرب الدواء فعصانى، وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع إطلاق اسم العصيان على آدم لا لكونه تاركا للواجب بل لكونه تاركا للمندوب[١].

وأجابوا عن الوجه الثانى فقالوا: أما التمسك بقوله تعالى (فغوى) فأجابوا عنه بما يلى: أنه خاب سعية للإبقاء على نعيم الجنة وذلك لأنه لما أكل من تلك الشجرة ليصير ملكه دائما ثم لما أكل زال فلما خاب سعيه وما نجح قيل إنه غوى، وتحقيقه أن الغى ضد الرشد، والرشد هو أن يتوصل بشئ إلى شئ يوصل إلى المقصود فمن توصل بشئ إلى شئ فحصل له ضد مقصوده كان غيا[٢].

يقول الفخر الرازى: وظاهر القرآن وإن دل على أن آدم عصى وغوى، لكن ليس لأحد أن يقول إن آدم كان عاصيا وغاويا ويدل على صحة قولنا أمور:

أحدها: قال العتبى: يقال لرجل قطع ثوبا وخاطه قد قطعه وخاطه، ولا يقال خائط ولا خياط حتى يكون معاودًا لذلك الفعل معروفا به، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عن آدم عليه السلام إلا مرة واحدة فوجب أن لا يجوز إطلاق هذه الاسم عليه.

ثانيها: أنه على تقدير أن تكون هذه الواقعة إنما وقعت قبل النبوة، لم يجز بعد أن قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوة إطلاق هذا الاسم عليه كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر أنه كافر بمعنى أنه كان كافرا. بل وبتقدير أن يقال هذه الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز أيضا أن يقال ذلك لأنه عليه السلام تاب عنها، كما أن الرجل المسلم إذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لا يقال له بعد ذلك إنه شارب الخمر أو زان فكذا ههنا.

ثالثها: أن قولنا عاص وغاو يوهم كونه عاصيا فى أكثر الأشياء وغاويا عن معرفة الله تعالى، ولم ترد هاتان اللفظتان فى القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التى

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢٢ ص ١٢٧.

(٢) المرجع السابق جـ٢٢ ص ١٢٨.

عصى فيها، فكأنه قال عصى فى كيت وكيت وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذى ذكرناه.

ورابعها: أنه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره، كما يجوز للسيد فى عبيده وولده عند معصيته من إطلاق القول ما لا يجوز لغير السيد فى عبده وولده[١].

وأجابوا عن الوجه الثالث فقالوا: بأن التوبة تجب من الصغيرة كما تجب من الكبيرة، لأن الصغيرة إذا لم يتب منها صاحبها صار مصرا عليها، والإصرار على أى ذنب كبيرة[٢].

وقد قالوا لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار. وهذا جواب من جوز الصغيرة على الأنبياء عمدا حيث يرى أن ذلك لا يقدح فى العصمة ما دامت التوبة تعقبه. وأما من لم يجوزها فالجواب عندهم بأن التوبة تحسن ممن لم يذنب قط على سبيل الانقطاع إلى الله والرجوع إليه، ووجه حسنها استحقاق الثواب بها ابتداء بدليل أن يقال: اللهم اجعلنا من التوابين، فلو كان حسنها مسبوقا بفعل الذنب لكان ذلك من القائل سؤالا لصيرورته مذنبا وذلك لا يجوز، والتوبة هنا توبة من خلاف الأولى على اعتبار أنه معصية بالنسبة لمقام الأنبياء[٣].

وأجابوا عن الوجه الرابع فقالوا: إن النهى فى هذه الصيغة ـ (ولا تقربا هذه الشجرة) ـ لنهى التنزيه، وذلك لأن هذه الصيغة وردت تارة فى التنزيه وأخرى فى التحريم والأصل عدم الاشتراك فلابد من جعل اللفظ حقيقة فى القدر المشترك بين القسمين وما ذلك إلا أن يجعل حقيقة فى ترجيح جانب الترك على جانب الفعل من غير أن يكون فيه دلالة على المنع من الفعل أو على الإطلاق فيه لكن الإطلاق فيه كان ثابتا بحكم الأصل، فإن الأصل فى المنافع الإباحة فإذا ضممنا مدلول اللفظ إلى هذا الأصل صار المجموع دليلا على التنزيه، قالوا وهذا هو الأولى بهذا المقام لأن

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٢) يقول الإمام الغزالى: اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار. الإحياء جـ١١ ص ٢١٢١.

(٣) مفاتيح الغيب جـ٣ ص ٢٢، ٢٣.

علىٰ هذا التقدير يرجع حاصل معصية آدم عليه السلام إلى ترك الأولى، ومعلوم أن كل مذهب كان أفضى إلى عصمة الأنبياء عليهم السلام كان أولى بالقبول[١].

وأجابوا عن الوجه الخامس فقالوا: إن الله سبحانه وتعالى سماه ظالما بأن كل ذنب يأتى به المكلف صغيرا كان أو كبيرا يكون به ظالما لنفسه وهذا جواب من جوز الصغيرة مع عدم الإصرار، وأما من لم يجوزها فأجاب بأن ترك الأولى ظلم لأنه أنقص حظ نفسه من الثواب بسبب ترك الأولى، فليس المراد من الظلم هنا الظلم الحرام الذى هو اقتراف ما نهى الله عنه، وإنما هو نقص الحظ وهو معنى يقابل المعنى الأول للظلم، وسمى نقص النفس حظها ظلما لأن المعنى العام للظلم يشمله وهو وضع الشئ فى غير موضعه أو حمل هذا الظلم على أنه فعل ما الأولى له أن لا يفعله ومثاله إنسان طلب الوزارة ثم إنه تركها واشتغل بالحياكة فإن يقال له ياظالم لنفسه لم فعلت ذلك؟

فإن قيل :هل يجوز وصف الأنبياء عليهم السلام بأنهم كانوا ظالمين أو كانوا ظالمى أنفسهم؟ والجواب أن الأولى أنه لا يطلق ذلك لما فيه من إيهام الذم[٢].

وأجابوا عن الوجه السادس فقالوا: إن هذا الذنب إنما صدر عن آدم قبل النبوة[٣]. أو أنه محمول على الصغيرة التى لا إصرار معها عند من يجوزها أو على ترك الأولى باعتباره ظلما منقصا للحظ عند من لم يجوزها[٤].

وأجابوا عن الوجه السابع فقالوا: إن إهباط آدم إلى الأرض وخروجه من الجنة ليس عقوبة وإنما هو تكليف، والتكليف يحصل معه المشقة، والثواب مع المشقة أفضل.

يقول الفخر الرازى: اختلفوا فى أن قوله "إهبطوا" أمر أو إباحة والأشبه أنه أمر لأن فيه مشقة شديدة لأن مفارقة ما كانا فيه من الجنة إلى موضع لا تحصل المعيشة فيه

---

(١) المرجع السابق جـ٣ ص٥ .

(٢) المرجع السابق جـ٣ ص٦.

(٣) المرجع السابق جـ١٤ ص٥٣.

(٤) قصة آدم فى القرآن الكريم وما دار حولها من شبهات ص ٢٥٠.

إلا بالمشقة والكد من أشق التكاليف، وإذا ثبت هذا بطل ما يظن أن ذلك عقوبة، لأن التشديد فى التكليف سبب للثواب، فكيف يكون عقابا مع ما فيه من النفع العظيم[١]؟ هذا إلى جانب أن آدم خلق ليكون خليفة فى الأرض[٢]. وإذا كان المقصود من خلقه الخلافة فى الأرض فكيف يكون الخروج إلى ما خلق من أجله عقوبة له؟

فهذه الشبهة بوجوهها السبعة لا تقدح فى عصمة آدم عليه السلام.

❖ ❖ ❖

أما عن الشبهة الثانية التى وردت على عصمة آدم فهى لا تتعلق بموضوع دراستنا لذلك سنشير إليها ونحيل القارئ إلى كتب التفاسير، فى بيان هذه الشبهة والرد عليها.

فلقد تمسك المخالفون لعصمة الأنبياء بالنسبة لآدم بقوله تعالى ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (سورة الأعراف الآيات: ١٨٩ ، ١٩٠) قالوا إن النفس الواحدة هى آدم وزوجها المخلوق منها حواء، فهذه الكنايات بأسرها عائدة إليهما، فوجب أيضا أن يكون قوله (جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) عائد إليهما وهذا يقتضى صدور الشرك عنهما[٣]. وهو ما يتنافى مع العصمة.

ولقد استدل هؤلاء ببعض الأحاديث أوردها الإمام ابن كثير فى تفسيره وبين عللها وضعفها وعدم صحتها[٤].

ولقد رد العلماء على هذه الشبهة وبينوا أن هذا التأويل فاسد، وقد أشار الفخر الرازى إلى أسباب فساد هذا التأويل وبين الوجه الصحيح [٥] فى تفسير هذه الآية وذكر منها ما يلى:

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٣ ص ١٨ .
(٢) وسنزيد ذلك إيضاحا فى نهاية هذا الفصل.
(٣) راجع فى ذلك: عصمة الأنبياء ص١٩، المواقف ص٣٦٠، مفاتيح الغيب جـ١٥ ص ٩٠.
(٤) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٧٤.
(٥) مفاتيح الغيب جـ١٥ ص ٩٠ ، ٩١.

obeikandl.com

إن الخطاب لقريش الذين كانوا فى عهد الرسول ﷺ وهو آل قصى، والمراد من قوله (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) قصى (وجعل منها) أى من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح السوى جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة: بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصى، وعبد اللات، وجعل الضمير فى (يشركون) لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما فى الشرك[1]. إلى غير ذلك من الأوجه الصحيحة لمعنى هذه الآية.

والخلاصة أنه ليس فى الآية ما يخدش عصمة آدم عليه السلام التى ثبتت بالدليل القطعى، وليس فى الشبهات التى أوردها المخالفون للقول بعصمة الأنبياء ما يقدح فى عصمة آدم عليه السلام كنبى ورسول.

العصمة تنفى وراثة الذنب

والعصمة الثابتة للأنبياء ـ ومنهم آدم ـ تنفى صدور الذنب عنهم، وأما ما أوهم ظاهره أنه ذنب، أو ما شهدت به النصوص أنه ذنب، فهو محمول على أنه خلاف الأولى، أو أنه من صغائر الذنوب التى هى من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وهذا يعنى أن العصمة إذا كانت تنفى الذنب عن آدم أو هى التى جعلت العلماء يؤولون حدوث الأكل من الشجرة من آدم، فإنها من باب أولى تنفى أن ينتقل ذنب آدم أو معصيته إلى أولاده بالوراثة. ذلك لأن آدم معصوم وما وقع فهو محمول على غير ظاهره.

فإن العصمة تنفى أن يبقى الذنب على آدم ويعاقب عليه وإلا لما صح أن يكون نبيا ورسولا، فإن النبوة والرسالة تقتضى العصمة فلو كان الذنب لاصقا به ـ وسيعاقب عليه ـ لما ثبت عصمته، فالعصمة تنفى الذنب عن آدم ومن باب أولى تنفى أن ينتقل هذا الذنب ـ الذى لا وجود له بعد العصمة ـ إلى أبنائه. وبسبب هذه العصمة الثابتة لآدم فقد أول العلماء ما ورد من أكل آدم من الشجرة بأنه من الصغائر التى لا تخدش العصمة أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين. وإذا كان ذنب آدم من الصغائر فهل يصح القول إن هذه الصغيرة انتقلت إلى أبنائه بالوراثة؟ أو أن هذا

---

(١) المرجع السابق جـ١٥ ص ٩١ ، ٩٢ راجع أيضا: المواقف ص٣٦٢.

الذنب كان قبل النبوة والرسالة على سبيل السهو. والعصمة له بعد الرسالة تنفى عنه الذنوب التى حدثت منه قبل النبوة، ذلك لأنه تاب إلى الله والله غفر ذنبه وعصمه من الذنوب. فهل يصح القول بعد ذلك بأن الذنب انتقل إلى أبناء آدم؟ وكيف ذلك، وليس هناك ذنب أصلا بعد العصمة والتوبة؟ وعلى كل حال فإن العصمة كما ترى تنفى الذنب عن آدم فضلا عن أن ينتقل إلى غيره.

الملابسات التى صاحبت أكل آدم من الشجرة

لقد ذكر القرآن الكريم أن آدم حين أكل من الشجرة نسى قال تعالى: ﴿ **فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا** ﴾ (سورة طه الآية: ١١٥). وفى معنى النسيان قولان: أحدهما: المراد ما هو نقيض الذكر وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة فى الضبط حتى تولد منه النسيان، وكان الحسن رحمه الله يقول والله ما عصى آدم قط.

والثانى: أن المراد بالنسيان الترك وإنما ترك ما عهد الله من الاحتراز عن الشجرة وأكل من ثمرتها، وقرئ فنسى أى فنساه الشيطان. وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال أقدم على المعصية من غير تأويل وأن يقال أقدم عليها مع التأويل[١].

أما المعنى الأول: فقد قال به طائفة من المتكلمين فقالوا: إن آدم أقدم على المعصية حال كونه ناسيا، واحتجوا عليه بقوله تعالى (ولم نجد له عزما) ومثلوه بالصائم يشتغل بأمر يستغرقه ويغلب عليه فيصير ساهيا عن الصوم ويأكل فى أثناء ذلك السهو لا عن قصد[٢].

وقد يعترض على هذا المعنى بوجهين.

الوجه الأول: أن قوله تعالى (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين) وقوله(وقاسهما إنى لكما لمن الناصحين)يدل على أنه ما نسى النهى حال الإقدام. وروى عن ابن عباس ما يدل على أن آدم عليه السلام تعمد لأنه قال لما أكلا منها فبدت لهما سوآتهما خرج آدم فتعلقت به شجرة من شجر الجنة فحبسته فناداه الله تعالى أفرارا منى، فقال بل حياء منك، فقال له أما كان فيما منحتك من الجنة

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢٢ ص ١٢٤.
(٢) المرجع السابق جـ٣ ص١٢.

مندوحة عما حرمت عليك، فقال بلى يارب ولكنى وعزتك ما كنت أرى أن أحدا يحلف بك كاذبا، فقال وعزتى لأهبطنك منها ثم لا تنال العيش إلا كدا.

الوجه الثانى: أنه لو كان ناسيا لما عوتب على ذلك الفعل.

أما من حيث العقل فلأن الناسى غير قادر على الفعل فلا يكون مكلفًا به لقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٨٦). وأما من حيث النقل فلقوله عليه الصلاة والسلام (رفع القلم عن ثلاث)[١]. فلما عوتب عليه دل على أن ذلك لم يكن على سبيل النسيان[٢].

أما الجواب عن هذين الوجهين فهو ما يلى:

الجواب عن الأول: يقول الفخر الرازى: لا نسلم أن آدم وحواء قبلا من إبليس ذلك الكلام، ولا صدقاه فيه؛ لأنهما لو صدقاه لكانت معصيتهما فى هذا التصديق أعظم من أكل الشجرة، لأن إبليس لما قال لهما (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) فقد ألقى إليهما سوء الظن بالله ودعاهما إلى ترك التسليم لأمره والرضا بحكمه وإلى أن يعتقدا فيه كون إبليس ناصحا لهما وأن الرب تعالى قد غشهما. ولا شك فى أن هذه الأشياء أعظم من أكل الشجرة فوجب أن تكون المعاتبة فى ذلك أشد. وأيضا كان آدم عليه السلام عالما بتمرد إبليس عن السجود وكونه مبغضا له وحاسدا له على ما آتاه الله من النعم، فكيف يجوز من العاقل أن يقبل قول عدوه مع هذه القرائن وليس فى الآية أنهما أقدما على ذلك الفعل عند ذلك الكلام أو بعده، ويدل على أن آدم كان عالما بعداوته قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ (سورة طه الآية: ١١٧).

وأما ما روى عن ابن عباس فهو أثر مروى بالآحاد فكيف يعارض القرآن[٣].

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الحدود باب لا يرجم المجنون والمجنونة جـ١٢ ص ١٢٠ ط السلفية، وكذلك أيضا رواه الدارمى والترمذى وأبو داود.

(٢) مفاتيح الغيب جـ٣ ص ١٢.

(٣) المرجع السابق ص١٣ جـ٣.

ويقول (أما الجواب عن الثانى: فهو أن العتاب إنما حصل على ترك التحفظ من أسباب النسيان، وهذا الضرب من السهو موضوع عن المسلمين، وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به وليس بموضوع عن الأنبياء لعظم خطرهم ومثلوه بقوله تعالى ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (سورة الأحزاب الآية: ٣٢).

ثم قال ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ (سورة الأحزاب الآية: ٣٠) وقال عليه الصلاة والسلام (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل)[١]. وقال أيضا (إنى أوعك ما يوعك الرجلان منكم)[٢]. فإن قيل يجوز أن يؤثر عظم حالهم وعلو منزلتهم فى حصول شرط فى تكليفهم دون تكليف غيرهم؟ قلنا أما سمعت (حسنات الأبرار سيئات المقربين) ولقد كان على النبى ﷺ من التشديدات فى التكليف ما لم يكن على غيره[٣].

وهكذا يتبين لنا أن المعنى الأول للنسيان هو:

أن آدم أكل من الشجرة حال كونه ناسيا، وأن العتاب من الله كان بسبب ترك التحفظ الذى هو من أسباب النسيان وذلك نظرا لمقامه الرفيع وعلو منزلته عند الله.

المعنى الثانى للنسيان: وهو أن آدم ترك ما عهد إليه بعدم الأكل من الشجرة فأكل ويشمل هذا المعنى كل الأقوال التى قيلت فى كون معصية آدم عمدا سواء كانت بتأويل أم بغير تأويل وهى كما يلى[٤].

١ ـ أن آدم عصى الله فأكل من الشجرة عمدا وكان ذلك كبيرة مع أن آدم عليه السلام كان فى ذلك الوقت نبيا وهذا القول باطل بما أثبتناه من عصمة آدم عليه السلام.

---

(١) أخرجه الترمذى/كتاب: الزهد/باب: ما جاء فى الصبر على البلاء وقال: هذا حديث حسن صحيح.
وابن ماجة/كتاب: الفتن/باب: الصبر على البلاء، وأحمد فى المسند ١/١٨٥، وابن حبان فى الصحيح/كتاب: الجنائز/باب: ما جاء فى الصبر وثواب الأمراض، والحاكم فى المستدرك ١/٩٩، ١٠٠ حديث ١٢٠، ١٢١، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه البخارى/كتاب: المرضى والطب/باب: أشد الناس بلاء الأنبياء، مسلم/كتاب: البر والصلة والآداب/باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، وأحمد فى المسند ١/٤٤١.

(٣) مفاتيح الغيب جـ٣ ص ١٣.

(٤) المرجع السابق جـ٣، ص ١٤.

٢ ـ أنه عليه السلام فعله عمدا لكن كان معه من الوجل والفزع والإشفاق ما صير ذلك فى حكم الصغيرة، وهذا القول أيضا باطل بما أثبتناه من عصمة آدم عليه السلام، وذلك لأن المقدم على ترك الواجب أو فعل المنهى عنه عمدا وإن فعله مع الخوف ألا أنه يكون مع ذلك عاصيا مستحقا للعن والذم والخلود فى النار، ولا يصح وصف الأنبياء عليهم السلام بذلك، ولأنه سبحانه وتعالى وصفه بالنسيان فى قوله (فنسى ولم نجد له عزما) وذلك ينافى العمدية.

٣ ـ أنه عليه السلام أقدم على الأكل بسبب اجتهاد أخطأ فيه، وذلك لا يقتضى كون الذنب كبيرة. وبيان الاجتهاد والخطأ: أنه لما قيل له (ولا تقربا هذه الشجرة) فلفظ (هذه) قد يشار به إلى الشخص وقد يشار به إلى النوع، ويدل على ذلك ما روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ حريرا وذهبا بيده وقال: (هذان حل لإناث أمتى حرام على ذكورهم) [١] وروى أنه عليه الصلاة والسلام توضأ مرة مرة وقال (هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به) [٢]. وأراد نوعه. فلما سمع آدم عليه السلام قوله تعالى (ولا تقربا هذه الشجرة) ظن أن النهى إنما يتناول تلك الشجرة المعينة فتركها وتناول من شجرة أخرى من ذلك النوع إلا أنه كان مخطئا فى ذلك الاجتهاد، لأن مراد الله تعالى من كلمة (هذه) كان النوع لا الشخص، والاجتهاد فى الفروع إذا كان خطأ لا يوجب استحقاق العقاب واللعن لاحتمال كونه صغيرة مغفورة[٣].

وهذا التأويل وجه إليه الاعتراضات الكثيرة ذكرها الفخر الرازى فى تفسيره نذكر منها ما يلى: يقول الفخر الرازى (إن كلمة (هذا) فى أصل اللغة للإشارة إلى الشئ

---

(١) أخرجه أبو داود فى السنن/كتاب: اللباس/باب: فى الحرير للنساء، والنسائى فى الصغرى/كتاب: اللباس/باب: تحريم الذهب على الرجال، وابن ماجة فى السنن/كتاب: اللباس/باب: لبس الحرير والذهب للنساء، وأحمد فى المسند١/١١٥، وابن حبان فى الصحيح/كتاب: اللباس وآدابه/باب: ذكر البيان بأن لبس الحرير ليس من لباس المتقين.

(٢) أخرجه ابن ماجة فى السنن/كتاب: الطهارة وسننها/ باب: ما جاء فى الوضوء مرة ومرتين وثلاثا ـ وسنده ضعيف فيه "زيد بن الحوارى العمى" قال الحافظ ابن حجر: ضعيف "وعبد الرحيم بن زيد العمى" قال الحافظ ابن حجر: كذبه ابن معين (تقريب التهذيب ١/٢٦٨، ٤٦٧ ط دار المعرفة. بيروت).

(٣) مفاتيح الغيب ص ١٤ جـ ٣.

الحاضر، والشئ الحاضر لا يكون إلا شيئا معينا فكلمة (هذا) فى أصل اللغة للإشارة إلى الشئ المعين فأما أن يراد بها الإشارة إلى النوع فذاك على خلاف الأصل ـ وأيضا لأنه تعالى لا تجوز الإشارة عليه ـ فوجب أن يكون أمر بعض الملائكة بالإشارة إلى ذلك الشخص فكان ما عداه خارجا عن النهى لا محالة. إذا ثبت هذا فنقول[١]: المجتهد مكلف بحمل اللفظ على حقيقته فآدم عليه السلام لما حمل لفظ (هذا) على المعين كان قد فعل الواجب ولا يجوز له حمله على النوع، وهذا الكلام متأيد بقوله تعالى (وكلا منها رغدا حيث شئتما) أفاد الإذن فى تناول كل ما فى الجنة إلا ما خصه الدليل، وأيضا متأيد بأن العقل يقتضى حل الانتفاع بجميع المنافع إلا ما خصه الدليل، والدليل المخصص لم يدل على ذلك المعين، فثبت أن آدم عليه السلام كان مأذونا له فى الانتفاع بسائر الأشجار وإذا ثبت هذا امتنع أن يستحق بسبب هذا عتابا وأن يحكم عليه بكونه مخطئا فثبت أن حمل القصة على هذا الوجه يوجب أن يحكم عليه بأنه كان مصيبا لا مخطئا وإذا كان كذلك ثبت فساد هذا التأويل)[٢].

هذا هو المعنى الثانى للنسيان وهو بمعنى الترك أى ترك آدم العهد وأكل من الشجرة متعمدا سواء كان هذا الأكل باجتهاد أو بغير اجتهاد وقد ظهر أن هذا المعنى مرجوح، وعليه فالمعنى الأول هو الراجح وذلك لأنه هو الذى يتفق وعصمة الأنبياء عليهم بالسلام ولأنه هو الذى دلت عليه الدلائل والإشارات ودل عليه قوله (ولم نجد له عزما) ولأنه هو الذى رجحه أكثر العلماء فدافع عنه الرازى كما ظهر مما تقدم، وصححه القرطبى[٣] وكذلك ابن العربى[٤].

أما معنى قوله تعالى (ولم نجد له عزما) أى لم نجد له عزما على القيام بالمعصية[٥]. أى أن آدم أكل من الشجرة ناسيا ولم تكن لديه العزيمة لفعل المعصية.

---

(١) الكلام لازال للفخر الرازى.

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ١٤.

(٣) راجع تفسير القرطبى جـ١ ص ٣٠٦.

(٤) راجع أحكام القرآن لابن العربى القسم الثالث ص ١٢٦٢ دار المعرفة للطباعة والنشر.

(٥) مفاتيح الغيب جـ٢٢ صـ١٢٤.

النسيان ينفى وراثة الذنب

لقد تبين لنا أن آدم أكل من الشجرة ولكن كان ناسيا، والله سبحانه وتعالى عاتبه وذلك لعلو منزلته ورفعة شأنه، وكون آدم عصى الله ناسيا ينفى وراثة الذنب، فآدم لم يخالف الله إلا ناسيا، والنسيان مرفوع عن صاحبه، والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يؤاخذ بالنسيان من خالف ناسيا، فكيف يؤاخذ بذلك غيره ممن لم يخالف؟، فالنسيان ينفى تعلق الذنب بآدم وبالأولى ينفى أن ينتقل هذا الذنب إلى أبنائه.

توبة آدم

على أن آدم برغم أنه عصى الله ناسيا وهذا كان قبل النبوة على سبيل السهو - كما بينا - إلا أنه تاب من ذلك، لأن الأنبياء عليهم من التشديدات فى التكاليف ما لم يكن على غيرهم.

فآدم تاب والتوبة تمحو الذنب.

تعريف التوبة:

التوبة لغة مطلق الرجوع[١].

وشرعا: ما استجمع ثلاثة أركان[٢]: الإقلاع عن الذنب، فلا تصح توبة الماكث مثلا إلا إذا أقلع عن المكث.

والندم على فعلها لوجه الله تعالى، فلا تصح توبة من لم يندم أو ندم لغير وجه الله تعالى كأن ندم لأجل مصيبة حصلت له. والعزم على أن لا يعود إلى مثلها أبدا فلا تصح التوبة ممن لم يعزم على عدم العودة.

هذا إذا لم تتعلق المعصية بالآدمى فإن تعلقت به فلها شرط رابع وهو رد الظلامة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه)[٣] ومن شروطها أيضا صدورها قبل الغرغرة

---

(١)جاء فى المعجم الوسيط (تاب توبا وتوبة ومتابا وتابه: أى رجع عن المعصية فهو تائب وتواب) جـ١ ص ٩٠

(٢) يقوم الإمام النووى (قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب فإن كان المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط: أحدهما أن يقلع عن المعصية، والثانى: أن يندم على فعلها والثالث: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبدا فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها فإن كان مالا أو نحوه رده إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منه). أ. هـ. رياض الصالحين ص٧.

(٣) راجع شرح البيجورى على الجوهرة ص ٢٣٩.

وهى حالة النزع[١]. وقبل طلوع الشمس من مغربها[٢] فإنه حينئذ يغلق باب التوبة ويسمع له دوى فتمتنع التوبة على من لم يكن تاب قبل ذلك[٣].

والتوبة واجبة من جميع المعاصى وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة. قال الله تعالى ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة النور الاية : ٣١).

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ (سورة هود الآية : ٩٠)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ (سورة التحريم الآية : ٨)

ويقول الرسول ﷺ : والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة)[٤].

ويقول ﷺ: يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة)[٥].

---

(١) يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ سورة النساء الآية : ١٨ . وقوله ﷺ إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر" أخرجه الترمذى فى جامعه /كتاب: الدعوات/باب: فى فضل التوبة والاستغفار وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجة فى السنن/ كتاب: الزهد/باب: ذكر التوبة، وأحمد فى المسند ١٣٢/٢ ، وابن حبان فى الصحيح /كتاب: الرقائق/باب: التوبة، والحاكم فى المستدرك ٢٨٦/٤ حديث ٧٦٥٩ . ويدل على هذا أيضا ما جاء فى القرآن الكريم عن إيمان وتوبة فرعون الذى تعقب موسى وكفر به ولكنه عند الغرق آمن وتاب ولكن إيمانه لم ينفعه وتوبته لم تنفعه لأنه كان فى النزع الأخير. (راجع سورة يونس الآيات ٩٠ ، ٩١، ٩٢).

(٢) ويدل عليه قوله ﷺ (من تاب قبل أن تطلع الشمس تاب الله عليه) أخرجه مسلم فى الصحيح/كتاب: الذكر والدعاء/باب: استحباب الاستغفار، وأحمد فى المسند٢/٧٥، ٣٩٥، وابن حبان فى الصحيح/كتاب: الرقاق/باب: التوبة.

(٣) راجع شرح البيجورى على الجوهرة ص ٢٣٩.

(٤) أخرجه البخارى فى الصحيح/كتاب: الدعوات/باب: استغفار النبى ﷺ فى اليوم والليلة، وابن ماجة فى السنن/كتاب: الأدب/باب: الاستغفار، وأحمد فى المسند ٣٤١/٢.

(٥) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد/باب: سيد الاستغفار، ومسلم فى الصحيح/كتاب: الذكر والدعاء/باب: استحباب الاستغفار، وأحمد فى المسند ٢٦٠/٤، وابن حبان فى الصحيح/كتاب: الرقاق/باب: الأدعية.

توبة آدم:

لجأ أدم إلى الله مستغفرا نادما منيبا إليه فلما كان كذلك تاب الله عليه. يقول سبحانه ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٣٧) أى ألهمه الله كلمات فأناب إليه بها[١].

أما الكلمات التى ألهمه الله إياها فهى كما قال مجاهد وقتادة غيرهما[٢]: قوله ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٢٣) وقد روى بعض الصحابة والتابعين بعض الروايات عن هذه الكلمات.

قال عبيد بن عمير الليثى فى تفسير ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ قال آدم لربه وذكر خطيئته: رب شئ كتبته على قبل أن تخلقنى أم شئ ابتدعته؟ فقال: بل شئ كتبته عليك قبل أن أخلقك، قال: فكما كتبته على فاغفره لى.قال فهؤلاء الكلمات التى قال الله عز وجل ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾[٣].

وروى عن سعيد بن جبير والسدى عن ابن عباس أن آدم عليه السلام قال يارب ألم تخلقنى بيدك بلا واسطة؟ قيل له بلى، قال يارب ونفخت فى من روحك؟ قيل له بلى. قال وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له بلى، وكتبت على أن أعمل هذا؟ قيل له بلى. فهو قوله ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾[٤].

وعن ابن عباس رضى الله عنه أن الكلمات هى قوله: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت خير الغافرين. لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت خير الراحمين.

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص٢٣١.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٨١.

(٣) راجع عقائد السلف ص ٣٢٤.

(٤) قال ابن كثير فى تفسيره عن هذه الرواية (رواه العوفى وسعيد بن جبير وسعيد بن سعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه ورواه الحاكم فى مستدركه وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٨١.

لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك علمت سوءا وظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم[١].

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: لما أراد الله تعالى أن يتوب على آدم طاف بالبيت سبعا والبيت يومئذ ربوة حمراء فلما صلى ركعتين واستقبل البيت قال: اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى. اللهم إنى أسالك إيمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى وأرضى بما قسمت لى. فأوحى الله تعالى إلى آدم يا آدم قد غفرت لك ذنبك ولن يأتينى أحد من ذريتك فيدعونى بهذا الدعاء الذى دعوتنى به إلا غفرت ذنبه وكشفت همومه وغمومه ونزعت الفقر من بين عينيه وجاءته الدنيا وهو لا يريدها)[٢].

هذه بعض الروايات التى رويت فى تفسير قوله تعالى ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ والأوثق هو التفسير الأول الذى روى عن مجاهد وقتادة، ذلك أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا.

قبول توبة آدم:

تضرع آدم إلى الله سبحانه وتعالى ولجأ إليه بالاستغفار والتوبة فقبل الله توبته، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (سورة الشورى الآية: ٢٥).

وهو سبحانه المتصف بأن ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ (سورة غافر الآية: ٣).

قبل الله توبته (فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) (أى قبل توبته وعاد عليه بفضله ورحمته وبين سبب ذلك بأنه تعالى هو التواب الذى يقبل التوبة كثيرا، فمهما يذنب العبد ويتب يتب الله عليه، وبأنه هو الرحيم بعباده، فمهما يسئ أحدهم بما هو سبب لغضبه ويرجع إليه فإنه يحفه برحمته)[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٣ ص ٦٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢١.

(٣) تفسير المنار جـ١ ص ٢٣١.

يقول الفخر الرازى (وقبول التوبة يكون بوجهين:

أحدهما: أن يثيب عليها الثواب العظيم، كما أن قبول الطاعة يراد به ذلك.

والثانى: أنه تعالى يغفر ذنوبه بسبب التوبة[١].

ويقول الإمام الغزالى: أن للتوبة ثمرتين:

إحداهما: تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

والثانية: نيل الدرجات حتى يصير حبيبا[٢].

فالله سبحانه وتعالى تاب على آدم وقبل توبته ويدل على ذلك قوله تعالى (فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) وقبول التوبة يعنى أن الله قد غفر له زلته بسبب أكله من الشجرة ونال آدم بتوبته الدرجات العليا.

ماذا تعنى توبة آدم

وتوبة آدم تعنى أن الأساس الذى قامت عليه عقيدة الخلاص قد انهار، ذلك أن الله سبحانه وتعالى عفا عن آدم وكفر عنه الذنب فليس على آدم ذنب حتى يقال إن أبنائه ورثوا عنه وكيف يرثون ما محاه الله عنه؟

يقول صاحب تفسير المنار (وذكر توبة الله على الإنسان ترد ما عليه النصارى من اعتقاد أن الله تعالى قد سجل معصية آدم عليه وعلى بنيه إلى أن يأتى عيسى ويخلصهم منها، وهو اعتقاد تنبذه الفطرة السليمة ويرده الوحى المحكم المتواتر)[٣].

ويقول ابن تيميه (وآدم عليه السلام - وإن كان قد أكل من الشجرة - فقد تاب الله عليه واجتباه وهداه (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) وقال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) وليس عند أهل الكتاب فى كتبهم ما ينفى توبته وإنما قد يقول قائلهم: إنا لا نعلم أنه تاب، أو ليس عندنا توبته، وعدم العلم بشئ ليس علما بعدمه، وعدم وجود الشئ فى كتاب لا ينفى أن يكون فى كتاب آخر)[٤]. فذكر توبة آدم ترد ما تمسك به النصارى من اعتقاد أن معصية آدم عليه

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٣ ص ٢٣.

(٢) إحياء علوم الدين جـ١٢ ص ٢١٤٧.

(٣) تفسير المنار جـ١ ص ٢٣٥.

(٤) الجواب الصحيح: لمن بدل دين المسيح جـ١ ص ٣٦٥.

وعلى أبنائه، ذلك أن التوبة تنفى تعلق الذنب بآدم فضلا عن أبنائه. وبذلك يبطل القول بأن خطيئة آدم أضرت به وبنسله.

تحقيق لمعنى إهباط آدم إلى الأرض

قد يقول قائل : إن أكل آدم من الشجرة أضر به وبحواء وذلك لأن الله تعالى أخرجهما من الجنة وأهبطهما إلى الأرض ـ وذلك ما يقول النصارى.

ولكن الناظر فى القرآن الكريم يجد أن نزول آدم إلى الأرض لم يكن عقوبة ويدل على ذلك أمور:

الأمر الأول: يبين القرآن الكريم أن نزول آدم إلى الأرض كان من أجل مباشرة المهمة التى خلق من أجلها، أى أن نزول آدم إلى الأرض كان من أجل الوضع الحقيقى الذى خلق لأجله آدم، ذلك أن الله تعالى أخبر ملائكته من قبل خلق آدم أنه سيكون خليفة فى الأرض، فآدم خلق من أجل أن يكون خليفة فى الأرض لا أن يكون خليفة فى الجنة. وكان دخوله فى الجنة دخول سكن لا دخول إقامة (يقول القرطبى فى تفسيره: إن بعض العلماء قال فى قوله تعالى "اسكن" تنبيه على الخروج لأن السكنى لا تكون ملكا، ولهذا قال بعض العارفين: السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع، فدخولهما الجنة كان دخول سكنى لا دخول إقامة)[1].

فنزول آدم إلى الأرض كان وضعا طبيعيا ونزولا لمباشرة خلافته فى الأرض، وليس فيه رائحة العقوبة.

يقول د/عبد الحليم محمود: أكان نزوله إلى الأرض عقابا حقيقيا؟ أم كان نتيجة لسبب ظاهر شكلى؟ أكان أكله من الشجرة معصية حقيقة؟ أم هى مقادير رتبت من أجل نتيجة أرادها الله سبحانه وهى عمارة الأرض؟

لقد قال الله للملائكة من قبل خلق آدم (إنى جاعل فى الأرض خليفة) إنه سبحانه لم يقل إنى جاعل فى الجنة خليفة أو إنى جاعل فى السماء خليفة وإنما قال (جاعل فى الأرض خليفة) وهذه الجملة حددت مصير آدم إنه الأرض.

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص ٢٩٩ ثم يقول بعد ذلك (وإن كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء: إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسكنى، وأن له أن يخرجه إذ انقضت مدة الإسكان) أ.هـ.

ومن أجل ذلك تحدث علماؤنا فى الموضوع ورويت فيه آثار. من ذلك ما رواه خالد الحذاء قال: خرجت خرجة لى فجئت وهم يقولون: قال الحسن: فلقيته فقلت يا أبا سعيد آدم للسماء خلق أم للأرض؟ فقال: ما هذا يا أبا منازل؟ للأرض خلق فقلت: أرأيت لو اعتصم فلم يأكل من الشجرة قال: للأرض خلق فلم يكن بد من أن يأكل منها).

ومن أجمل الآراء فى قصة آدم وأعمقها رأى الإمام أبى الحسن الشاذلى، لقد شعر أبو العباس المرسى فى يوم بضيق شديد ولم يعلم له سببا فذهب إلى أبى الحسن الشاذلى، فلما رآه الشاذلى قال له مباشرة: آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وأسكنه الجنة ثم نزل به الأرض، **والله ما نزل بآدم إلى الأرض لينقصه ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله**، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وما قال فى الجنة ولا فى السماء فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توافرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة)[1].

فآدم خلق ليكون خليفة الله فى الأرض، فنزوله من الجنة إلى الأرض كان طبيعيا لا مجال للعقوبة فيه.

وعلى ذلك يتبين لنا فساد ما قاله النصارى من أن نزول آدم إلى الأرض كان عقوبة له ولحواء، وفساد قولهم إن الله أخرج آدم من الجنة غيظا منه وحنقا عليه، لأنه أصبح نده فى المعرفة وقد تصور أن البلاء سيكون أكبر من ذلك لو أنه أكل من شجرة الخلد، وقال الرب (هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها فطرد الإنسان وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة)[2].

فهذه الأقوال باطلة لأن نزول آدم إلى الأرض لم يكن عقوبة ولا خوفا من الله

---

(١) د/عبد الحليم محمود: فى رحاب الأنبياء والرسل ص ٤٠ ، ٤١.
(٢) تكوين ٣ : ٢٢ .

على شجرة الحياة بل كان نزوله مقدرا له قبل أن يخلق، إن الله سبحانه تعالى خلقه ليكون خليفة له فى الأرض، فكيف نعتبر نزوله إلى الأرض عقوبة؟

الأمر الثانى: إن القرآن الكريم يبين أن الله سبحانه وتعالى أهبط آدم إلى الأرض بعد أن اجتباه وتاب عليه، وذلك فى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (سورة طه الآيات: ١٢٢، ١٢٣).

ونجد أيضا فى سورة الأعراف أن القرآن الكريم يذكر الإهباط إلى الأرض بعد كلمات التوبة لآدم يقول القرآن الكريم فيما يحكيه عن آدم وحواء ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (سورة الأعراف الآيات: ٢٣، ٢٤) وهذا يدل على أن إهباط آدم إلى الأرض كان تكريما وتشريفا. إذ أن التوبة تمحو الذنب وتجعل صاحبها من المقربين لله، وإهباط آدم بعد التوبة لابد وأن يكون له معنى آخر غير العقوبة وهو التكريم والتشريف ويستفاد ذلك من قوله تعالى (ثم اجتباه ربه).

الأمر الثالث: إن نزول آدم إلى الأرض ليكون خليفة فى الأرض وليحصل على معيشته بالكد والتعب والمشقة، ولا شك أن الثواب مع المشقة والتعب أكثر فثوابه وهو على الأرض أكثر لأنه يعبد الله ويحصل على معيشته بالتعب، وهذا يدل على أن إهباط آدم إلى الأرض ليحصل على ثواب أعظم.

يقول الفخر الرازى(إن مفارقة ما كانا ـ آدم وحواء ـ فيه من الجنة إلى موضع لا تحصل المعيشة فيه إلا بالمشقة والكد من أشق التكاليف، وإذا ثبت هذا بطل ما يظن أن ذلك عقوبة؛ لأن التشديد فى التكليف سبب للثواب، فكيف يكون عقابا مع ما فيه من النفع العظيم)[1].

وهذه الأمور تبرز أن نزول آدم إلى الأرض لم يكن عقوبة وإنما كان من أجل أن يباشر مهمته كخليفة لله فى الأرض. ثم إن نزول آدم إلى الأرض كان بعد توبته ولا شك أن نزوله بعد التوبة يدل على أنه بمعنى التكريم لا العقوبة؛ على أن نزوله إلى الأرض سبب فى نواله الثواب العظيم ذلك لأنه على الأرض يحصل على معيشته بالتعب ولا شك أن التعب فيه الثواب العظيم.

وبذلك يتبين فساد القول بأن نزوله إلى الأرض عقوبة.

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٣ ص ١٨.

والخلاصة: ـ

أن موقف الإسلام من أكل آدم من الشجرة يتلخص فيما يلى:

١ ـ أن الإسلام يختلف عن النصرانية اختلافا كبيرًا فى نظرتيهما إلى أكل آدم من الشجرة، فبينما نرى نظرة النصرانية إلى أكل آدم من الشجرة بأنه خطيئة وخطيئة عظيمة تسببت فى أضرار كثيرة لآدم وأبنائه نجد أن الإسلام يبين أن أكل آدم من الشجرة عبارة عن فعل آدم لخلاف الأولى أو أنه نسيان، نعم إنه فى حق الأنبياء أعظم من غيرهم ولكن لا يترب عليه إضرار بآدم ولا بنسله.

٢ ـ أن آدم نبى مرسل معصوم من المعاصى، والعصمة تعنى الحفظ من الذنب أما ما أوهم ظاهره أنه معصية فإنه مؤول على أنه من قبيل ترك الأولى، أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، أو أنها وقعت منه قبل النبوة، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يبطل القول بانتقال ذنب آدم إلى أبنائه حيث لا يوجد ذنب يستحق الإرث ـ على فرض التسليم بأن الذنب يورث، ولقد بينا فى الباب الأول بطلانه.

٣ ـ آدم أكل من الشجرة حال كونه ناسيا، ولم يكن لديه العزيمة لفعل المعصية، والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يؤاخذ عبدا على ذنب فعله وهو ناس فضلا عن أن يعاقب به غيره.

٤ ـ أن الله سبحانه وتعالى تاب على آدم وحواء، والتوبة تغسل الحوبة، أى تغفر الذنوب وتكفرها. وإذا كان الأمر كذلك فكيف نقول بعد ذلك إن هذا الذنب انتقل إلى أبنائه؟ ذلك أنه لا يوجد ذنب بعد التوبة، فالتوبة تجب ما قبلها. وإذا لم يوجد ذنب فلا يصح القول بانتقال شئ لم يوجد!!!

وبذلك تلاشت عقيدة الخلاص لتلاشى أساسها، فآدم غفر الله له وجاءت ذريته نقية بريئة نقية حين ولادتها، وليس على أحد منهم خطيئة إلا بمقدار ما تكسبه يده بعد ولادته، وما كان إهباط آدم وزوجته إلى الأرض سخطا عليهما وتحقيرًا ولكن تشريفا لهما وتكريما؛ حيث باشرا بذلك مهمة استخلافهما فى الأرض كما وعد الله من قبل فى قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) فالخلافة هى المقصد الأسمى من خلق الإنسان"[1].

---

(١) د/محمد أبو الغيط الفرت: عقيدتا الصلب والتثليث وموقف الإسلام منهما ص ١٨٨.

وما دام أن إهباط آدم وزوجته إلى الأرض كان تكريما وتشريفا وليس عقوبة وتنكيلا وذلك بعد التوبة وحسن القبول فقد أصبحت كل نفس تحمل وزر نفسها وليس للإنسان إلا ما سعى.

وهو موضوع الفصل التالى.

obeikandl.com

الفصل الثانى

موقف الإسلام من تحمل الإنسان لأوزار غيره

obeikandl.com

obeikandl.com

تكريم الإسلام للإنسان

إن الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان أفضل تكريم

يقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (سورة الإسراء الآية: ٧٠).

فالإنسان مميز بالصورة الحسنة الجميلة وبالخلقة الجميلة يقول سبحانه ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (سورة التين الآية: ٤).

ويقول سبحانه ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة غافر الآية: ٦٤) وكان النبى ﷺ يكرر فى سجوده (سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين)[١].

ولقد أعلن الإسلام كرامة الإنسان فاعتبره خليفة الله فى الأرض وهى منزلة اشرأبت إليها أعناق الملائكة وتشوفت إليها نفوسهم فلم يعطوها ومنحها الله للإنسان ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٣٠).

لقد كرم الله الإنسان بالخلافة فى الأرض، وهيأه لها بالعقل والعلم الذى تفوق به على الملائكة. وفوق ذلك كله كرم الله الإنسان بالروح العلوى، الذى أودعه الله بين جنبيه، فهو قبس من نور الله، ونفخة من روح الله استحق به أن تنحنى له الملائكة، إجلالا وإكبارا لمقدمه بأمر الله كما قال الله تعالى ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (سورة ص الآيات ٧١ ، ٧٢).

---

١١) أخرجه مسلم فى الصحيح/ كتاب: صلاة المسافرين وقصرها/باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه، وأبو داود فى السنن/كتاب: الصلاة/باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء.

وهذه النفحة الإلهية ليست خاصة بآدم أبى البشر كما قد يتوهم بعض الناس فإن بنيه ونسله قد نالهم حظ منها كما قال تعالى بعد أن ذكر خلق آدم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة السجدة الآيات: ٨ ، ٩).

فلم يكن هذا التكريم والاحتفال لشخص آدم عليه السلام وإنما كان تكريما للنوع الإنسان فى شخصه فإن الله ميزهم بما ميزه من مواهب العقل والعلم والروح واستخلفهم كما استخلفه فى الأرض ولهذا أعلن القرآن كرامة البشر كافة[1].

ولم يقف أمر هذا التكريم عند هذا الحد بل امتد إلى العالم المادى كله، ذلك أن مركز الإنسان فيه هو مركز السيد، لأن الله سبحانه وتعالى جعل الكون كله فى خدمته، وسخر لمنفعته العوالم كلها، السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والماء واليابس والبحار والأنهار والنبات والحيوان والجماد، كلها مسخرة لمصلحة الإنسان وسعادة الإنسان، كرامة من الله ونعمة منه عليه.

والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:

قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (سورة إبراهيم الآيات: ٣٢ ـ ٣٤).

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة الجاثية الآيات: ١٢ ـ ١٣).

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (سورة لقمان الآية: ٢٠). فالإسلام كرم الإنسان أعظم تكريم.

---

(١) راجع د/يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام ص ٦٩ ، ٧٠.

من كرامة الإنسان فى الإسلام: ولادته مبرأ من كل خطيئة

إن العقيدة النصرانية تعلم أن الإنسان خاطئ منذ ولادته، ذلك لأن أباه قد ارتكب الخطيئة، وأن المسيح عليه السلام صلب ـ حسب زعمهم ـ حتى يكفر عن البشر خطاياهم التى تحملها نيابة عنهم وهذا يعنى أن الإنسان غير طاهر القلب والنفس منذ نشأته بسبب وراثته الخطيئة. ومن كرامة الإنسان فى الإسلام: أنه أزال عنه وصمة التلوث بالخطيئة التى يولد عليها كل إنسان ـ كما تدعى المسيحية.

فقد ألغى الإسلام تلك الدعوى وأعلن أن كل مولود يولد على الفطرة[1]، غير ملوث بخطيئة أو مثقل بذنب. يولد مبرأ من كل خطيئة ومن كل معصية فالإنسان يولد بالفطرة التى فطر الله الناس عليها، والفطرة تعنى الميل إلى كل خير روحى وذلك نتيجة النفخة الروحية من الله سبحانه وتعالى للإنسان ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (سورة ص الآية: ٧٢).

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ (سورة السجدة الآية: ٩). أو أن الفطرة هى فطرة التوحيد وهى التى جاءت نتيجة عملية الإشهاد والتى ذكرها القرآن الكريم فى قوله:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ١٧٢).

يقول ابن كثير: يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلا بهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه. قال تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ (سورة الروم الآية: ٣٠) وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء[2]. هل تحسون فيها من جدعاء). وفى

---

(١) من حديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما حديث سبق تخريجه.

(٢) جمعاء بفتح الجيم وسكون الميم ممدودا نعت لبهيمة، أى لم يذهب من بدنها شئ، سميت بذلك لاجتماع أعضائها أى بهيمة مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص، لا توجد فيها جدعاء، وهى مقطوعة الأذن أو الأنف أو الأطراف، ومعناه أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها. وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها) أ. هـ. راجع صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٦ ص ٢٠٩، المختار من فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى للشيخ الشرقاوى المقرر على الصف الرابع الثانوى ص ٤١.

صحيح مسلم من عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم[١].

وعن الأسود بن سريع من بنى سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: ما بال أقوام يتناولون الذرية.

فقال رجل يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواه يهودانه وينصرانه[٢].

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف أن المراد بهذا الإشهاد: إنما هو فطرهم على التوحيد[٣].

فالإنسان يولد على الفطرة (فطرة الله التى فطر الناس عليها) أى خلقهم عليها، وهى قبول الحق وتمكينهم من إدراكه، أو ملة الإسلام فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أداهم إليه، لأن حسن هذا الدين ثابت فى النفوس، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد[٤]. ولقد جزم البخارى فى تفسير سورة الروم بأن الفطرة هى الإسلام فقال: قوله (لا تبديل لخلق الله) لدين الله، خلق الأولين: دين الأولين. والفطرة: الإسلام[٥]. وسواء كان هذا المعنى أم ذاك ـ وكلاهما صحيح ـ فإن ما نبغيه هنا هو: أن الإنسان يولد طاهر القلب والنفس مبرأ من كل خطيئة ومن كل

---

(١) أخرجه مسلم فى الصحيح/كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها/باب: الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٤/٢٤ حديث (١٥٧١٣) والطحاوى فى مشكل الآثار/باب: مشكل ما روى عن رسول الله ﷺ من قوله (كل مولود يولد على الفطرة).

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٦١، ٢٦٤..

(٤) الأحاديث المختارة من فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى المقرر على الصف الرابع الثانوى الأزهرى ص٢٤.

(٥) فتح البارى بشرح صحيح البخارى (كتاب التفسير جـ٨ ص٣٧٢).

ذنب بل يولد على الفطرة مهيئا لقبول الخير والحق ذلك أن الفطرة تهدى الإنسان إلى الخير والحق.

وبذلك يتبين فساد القول بأن الإنسان يولد بخطيئة موروثة من آدم.

من كرامة الإنسان فى الإسلام : مسئولية كل إنسان عن عمله

إن الاعتقاد المسيحى أن الإنسان تحمل خطيئة آدم وهذا يعنى أن الإنسان مسئول عن أعمال غيره، وغيره مسئول عن أعماله، ويترتب على هذا الاعتقاد أن المسئولية تضيع بين الأفراد ولا يعرف لها فردا مما يترتب عليه ملأ الأرض فسادا وجورا دون تحديد للمسئولية.

ولكن الإسلام قرر بوضوح وحسم مسئولية الإنسان عن نفسه فلا يجوز فى منطق العدل الإلهى أن يحمل الابن وزر أبيه أو الحفيد وزر جده. ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (سورة الإنعام الآية: ١٦٤).

لقد كان الإعلان الذى أعلنه الإسلام هو أن الإنسان لا يتحمل إلا مسئولية أعماله وحده، فلا يتحمل مسئولية جد ولا مسئولية ذنب أخ، أو عم، إلا إذا كانت له علاقة فى الموضوع، وأن الجيل اللاحق لا يتحمل أوزار الجيل السابق، وإنما الإنسان مسئول عن أعماله وحده صغيرها وكبيرها أمام الله فى الآخرة، وأما شريعة الله فى الدنيا فقال القرآن ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1].

وقال الرسول ﷺ (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[2].

---

(١) وردت هذه الآية فى القرآن الكريم أربع مرات فى سورة الأنعام (آية : ١٦٤ ، وفى سورة الإسراء آية: ١٥. وفى سورة فاطر آية: ١٨ ، وفى سورة الزمر الآية: ٧ هذا بجانب آية سورة النجم آية ٣٨ (ألا تزر وازرة وزر أخرى). راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٧٥٠.

(٢) أخرجه البخارى فى الصحيح/كتاب: الجمعة/باب: الجمعة فى القرى والمدن، وفى/كتاب: النكاح/باب: قوله تعالى: ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ (التحريم الآية: ٦) وفى /باب: المرأة راعية فى بيت زوجها، وفى أول كتاب: الأحكام، ومسلم فى الصحيح/كتاب: الإمارة/باب: فضيلة الإمام العادل، وأبو داود فى السنن/ كتاب: الخراج والإمارة والفئ/باب: ما يلزم الإمام من حق الرعية، والترمذى فى جامعه/كتاب: الجهاد/ باب: ما جاء فى الإمام، وابن حبان فى الصحيح/كتاب: السير/باب: الخلافة والإمارة.

وخاطب القرآن الكريم الناس ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (سورة النساء الآية: ١٢٣). فأصبح المسلم يحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة حتى قال قائل المسلمين (كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام) وأصبح الذى يقدم الإنسان أو يؤخره هو عمل الإنسان حتى قال رسول الله ﷺ:

(يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا) رواه [١] البخارى ومسلم. [٢] فلقد قرر الإسلام (المسئولية الفردية) وأكدها تأكيدا بليغا فى كتاب الله وسنة رسوله، فكل إنسان مسئول عن عمله ولا يحمل وزر غيره ولا يحمل غيره وزره.

خصائص المسئولية فى الإسلام

إن الإنسان مخلوق مكلف مسئول عن أعماله وذلك باعتبار أنه خليفة الله فى الأرض وأنه هو الذى تحمل أمانة التكاليف، والله سبحانه وتعالى أهله بالمواهب والملكات الروحية والعقلية والمادية ليستطيع القيام بمهمة الخلافة وبأمانة التكاليف على أكمل وجه.

وعليه فالإنسان مخلوق مكلف مسئول، والله سبحانه وتعالى أهله لهذه المسئولية. وهذه المسئولية التى أعلنها الإسلام تتميز بعدة خصائص وهى كما يلى:-

---

(١) أخرجه البخارى فى الصحيح/كتاب: الوصايا/باب: هل يدخل النساء والولد فى الأقارب/وفى كتاب: المناقب/باب: من انتسب إلى آبائه فى الإسلام والجاهلية، وفى/كتاب: التفسير/باب: قوله تعالى﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾(سورة الشعراء الآية: ٨٧)، ومسلم فى الصحيح/كتاب: الإيمان/باب: فى قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء الآية: ٢١٤)، والترمذى فى جامعه/كتاب: تفسير القرآن/ باب: ومن سورة الشعراء، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والنسائى فى الصغرى/ كتاب: الوصايا/ باب: إذا أوصى لعشيرته الأقربين، وابن حبان فى الصحيح/ كتاب الرقائق/ باب: الخوف والتقوى.

(٢) راجع الرسول ﷺ: لسعيد حوى جـ٢ ص ١٨٤.

١ ـ شمولها لكل أفراد بنى آدم:ـ

(مما تتميز به المسئولية فى الإسلام هو طابع الشمول الذى بسطه الكتاب الكريم على جميع المخلوقات العاقلة دون تفرقة بين عقل إنسانى وعقل فوق إنسانى بل دون أدنى تفرقة بين عامة الناس والصالحين منهم)[١].

فلو تتبعنا خطابات القرآن الكريم لوجدنا أنها موجهة إلى كل فرد مكلف من بنى آدم على تفاوت مراكزهم فى المجتمع وتباين درجاتهم فى دنيا الناس والحياة. فكل إنسان توافرت فيه شروط المسئولية والتكليف فهو ملزم برعاية أوامر الله عز وجل واجتناب نواهيه، وهذا ما قرره القرآن الكريم وأكده فى جميع آياته البينات وبالأخص إذا توجهنا إلى الآيات الصريحة فى ذكر المسئولية كما فى قوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الحجر الآيات: ٩٢ ، ٩٣).

فهذا تأكيد بالقسم وبإتيان اللفظ الدال على التأكيد (أجمعين) من الله عز وجل أنه سوف يسأل العباد كلهم وهو مرحلة المطالبة بالوجبات والفرائض وأمور الشريعة.

وذلك يسير على جميع الآيات التى نسوقها لتأكيد وتقرير أن المسئولية تعم جميع الأفراد من المكلفين الملزمين برعاية أمانة الله عز وجل.

ويقرر القرآن الكريم ذلك أيضا بقوله تعالى﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٦). فهذا قسم وتأكيد أيضا من الله عز وجل بأنه سوف يسأل الأمم جميعا الذين بلغتهم دعوة الرسل[٢]. يقول العلامة أبو السعود (أى لنسألن الأمم قاطبة قائلين ماذا أجبتم المرسلين)[٣].

ويقول الله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٢٥). وقوله (كل نفس) يدل على عموم المسئولية لكل إنسان مكلف، أى توفى كل نفس جزاء ما كسبت من

---

(١) د/محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق فى القرآن ص١٤٦ .

(٢) د/محمد إبراهيم الشافعى: المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم ص٥٧.

(٣) إرشاد العقل السليم جـ٢ ص ٢٣٤.

غير نقص (وهم لا يظلمون) أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس لا يظلمون بزيادة عذاب أو بنقص ثواب بل يصيب كل منهم مقدار ما كسبه)[١].

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٣٠) وقوله (كل نفس) يدل على عموم المسئولية كما ذكرنا سابقا.

وعموم المسئولية يشمل (الأنبياء والرسل) ويتبين ذلك من قوله سبحانه ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف الآية: ٦). أى عما أجيبوا قال تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ (سورة المائدة الآية: ١٠٩). يقول العلامة أبو السعود: فى معنى قوله (ماذا أجبتم) عبارة عن مصدر الفعل فهو نصب على المصدرية أى أى إجابة أجبتم من جهة أممكم إجابة قبول أو إجابة رد.

وقيل عبارة عن الجواب فهو فى محل نصب بعد حذف الجار عنه أى بأى جواب أجبتم[٢]. فالأنبياء والرسل أنفسهم سوف يسئلون مع سمو مكانتهم وعلو منزلتهم.

فالله سبحانه وتعالى سوف يخاطب أنبياءه ورسله ويسألهم عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسل إليهم.

فالمسئولية تقع على كل إنسان أى أن كل إنسان مسئول وسوف يسأل ويحاسب عما نيط به من مسئولية.

فأول خاصية للمسئولية فى الإسلام أنها تتصف بصفة العموم والشمولية لكل فرد مكلف.

٢ـ شمولها لكل ما يقوم به الإنسان من أعمال

أما الجانب الآخر لشمولية المسئولية فهو أن كل عمل يعمله الإنسان تقع عليه تبعته مهما كان شأن هذا العمل جل أو دق صغيرا كان أو كبيرا.

يقول سبحانه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (سورة الزلزلة الآيات: ٧ ، ٨).

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ٣٤٤.

(٢) راجع إرشاد العقل السليم جـ٢ ص ١٠٥ والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم.

obeikandi.com

ويقول سبحانه ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف الآيات: ٤٧ ـ ٤٩).

ويقول سبحانه ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة يونس الآية: ٦١).

وفى حكاية القرآن الكريم عن قول لقمان لابنه ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة لقمان الآية: ١٦).

ويقول سبحانه ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٤٧).

فكل هذه الآيات تدل على أن كل إنسان مسئول عن الأعمال الصغيرة والكبيرة. لقد فصلت آيات القرآن الكريم هذه الأعمال التى يسأل عنها العبد نذكر بعضا منها فيما يلى:-

أولا: فى مجال العقيدة

١ـ فلقد ذكر القرآن الكريم أن الإنسان يسأل عن التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخذ العهد والميثاق على بنى الإنسان بالإقرار بالوحدانية وأشهدهم على أنفسهم ، لذلك فكل إنسان يسأل عن هذه الإقرار وهذا الإشهاد يوم القيامة. يقول سبحانه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ١٧٢).

(أى فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا أولئلا تقولوا أو يقولوا هم[١]. (يوم القيامة) عند ظهور الأمر (إنا كنا عن هذا) عن وحدانية الربوبية وأحكامها (غافلين) لم ننبه عليه، فإنهم حيث جبلوا على ما ذكر من التهيؤ التام لتحقيق الحق والقوة القريبة من الفعل صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة[٢].

فالله سبحانه وتعالى يسأل كل بنى آدم عن الإشهاد بالوحدانية هل هو عمل به أم لا؟ وإذا لم يعمل به وأشرك مع الله غيره فإنه لا حجة له إلا أنه افتراه على الله، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يسأل هؤلاء الذين افتروا على الله بالشرك به.

يقول سبحانه ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ (سورة النحل الآية: ٥٦).

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية (يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم وجعلوا للأوثان نصيبا مما رزقهم الله فقالوا) ﴿ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾ (سورة الأنعام الآية: ١٣٦). أى جعلوا لآلهتهم نصيبا من الله وفضلوها على جانبه فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذى افتروه وائتفكوه وليقابلنهم عليه وليجازيهم أوفر الجزاء فى نار جهنم فقال (تالله لتسألن عما كنتم تفترون)[٣].

ثم يبين القرآن الكريم أن الله يسأل هؤلاء المشركين الذين نسبوا إلى الله الشريك.

يقول سبحانه ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ (سورة الزخرف الآية: ١٩). أى اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال (أشهدوا خلقهم) أى شاهدوه وقد خلقهم إناثا (ستكتب شهادتهم) أى بذلك (ويسئلون) عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد)[٤].

---

(١) ذكر العلامة أبو السعود أن هناك قراءة "يقولوا" بالياء.
(٢) إرشاد العقل السليم جـ٢ ص ٥٧٢.
(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٥٧٢.
(٤) المرجع السابق جـ٤ ص ١٢٥.

٢ ـ ثم يبين القرآن الكريم أن الإنسان يسأل عن إجابة الرسل: هل استجاب لدعوة الرسل أم لا؟ يقول سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (سورة القصص الآية: ٦٥).

ويقول سبحانه ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾ (سورة الأنعام الآية: ١٣٠).

ويقول سبحانه ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ (سورة الملك الآيات ٨ ، ٩).

ويحكى القرآن الكريم قول خزنة جهنم لأصحابها ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ (سورة غافر الآية: ٥٠).

٣ ـ ويسأل العبد أيضا عن الإيمان بالكتب التى أنزلت على رسل الله.

يقول سبحانه ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الحجر الآية: ٨٩ ـ ٩٣).

ويقول سبحانه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (سورة الزخرف الآية: ٤٤).

ثانيا: السؤال عن الملكات والنعم التى وهبها الله للإنسان:ـ

لم تقتصر المسئولية على الجانب الاعتقادى فقط، بل تمتد فتشمل الكلمات والقدرات والنعم التى أعطاها الله للإنسان، ذلك أن الإنسان يسأل عن سمعه وبصره وفؤاده وجميع حواسه.

يقول سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (سورة الإسراء الآية: ٣٦).

ويقول سبحانه ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (سورة التكاثر الآية: ٨).

(أى ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته)[١].

ولقد ذكروا فى النعيم المسئول عنه وجوها منها: ما روى أنه خمس:-

شبع البطون، وبارد الشراب، ولذة النوم، وإظلال المساكن، واعتدال الخلق.

وقال ابن مسعود: إنه الأمن والصحة والفراغ.

وقال ابن عباس: إنه الصحة وسائر ملاذ المأكول والمشروب.

وقال بعضهم: الانتفاع بإدراك السمع والبصر.

وقال الحسن بن الفضيل: تخفيف الشرائع وتيسير القرآن.

وقال البعض: إنه النعيم التام كالشئ الواحد الذى له أبعاض وأعضاء فإذا أشير إلى النعيم فقد دخل فيه الكل)[٢].

والمعنى العام أن نعم الله لا تحصى وهى ظاهرة وباطنة، والله سبحانه وتعالى سائل كل ذى نعمة عما أنعم به عليه، كيف تصرف فى نعم الله ونحوها؟

والنبى ﷺ يعطينا فكرة عن هذه المساءلة فيقول (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن عمله فيم عمل به؟ وعن ما له من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه)[٣].

وروى الترمذى[٤] أيضا بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: (إن أول ما يسأل عنه العبد - يعنى يوم القيامة - من النعيم أن يقال له ألم نصلح لك بدنك ونروك من الماء البارد)[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٥٤٥.

(٢) مفاتيح الغيب جـ٣٢ ص ٨٢.

(٣) أخرجه الترمذى فى جامعه/كتاب: صفة يوم القيامة والورع/باب: فى القيامة، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والطبرانى فى الأوسط ٣٤٨/٢ حديث (٢١٩١) وأخرج شاهدا له عن ابن عباس ١٥٥/٩، ١٥٦ حديث (٩٤٠٦).

(٤) أخرجه الترمذى فى جامعه/كتاب: التفسير/ باب: (٨٨) ومن سورة التكاثر، وقال: هذا حديث غريب، وابن حبان فى الصحيح/ كتاب: إخباره عن مناقب الصحابة/باب: إخباره عن البعث، والحاكم فى المستدرك ١٣٨/٤، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) راجع: تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٥٤٦.

ثالثا: السؤال عن الوفاء فى المعاملات: ـ

والمسئولية الإنسانية تنسحب لتشمل التعامل مع بنى البشر والوفاء بالتزامات هذا التعامل. يقول سبحانه ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** ﴾ (سورة الإسراء الآية: ٣٦). أى وأوفوا بالعهد الذى تعاهدون عليه الناس، والعقود التى تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه[١].

ولم يقتصر السؤال والمحاسبة على الأعمال الظاهرة فقط، بل يمتد فيشمل الأعمال الخفية يقول سبحانه ﴿ **وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ** ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٨٤)[٢].

(ففى هذه الآية الكريمة بيان لشمول علم الله تعالى لما أظهره الإنسان أو أخفاه من أقوال أو أعمال وأنه سيحاسبه على ذلك بما يستحقه من خير أو شر... والجملة صريحة فى أن الله تعالى يحاسب العباد على نياتهم وما تكسبه قلوبهم سواء أخفوه أو أظهروه)[٣].

وكل هذا يدل على ما تتميز به المسئولية من شموليتها لجميع البشر ولجميع الأعمال التى تتعلق بالإنسان.

(ولو أردنا أن نصوغ قولة تلخص هذه الصفة الشمولية فى جانبيها فلم نجد خيرا من تلك الكلمة المعروفة التى شبه فيها رسول الله ﷺ كل فرد فى بعض وجوهه، بالحارس أو المدير المسئول عن خير العاملين معه(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولية عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ٣٩.

(٢) ولقد اختلف العلماء هل نسخت هذه الآية بقوله تعالى﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ أم لا؟ ولكل رأى وجهة وأدلة (راجع تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٣٨ ، ٣٤٠، مفاتيح الغيب جـ٧ ص ١٣٦ ، ١٣٧.

(٣) د/ محمد سيد طنطاوى : تفسير سورتى الفاتحة والبقرة ص ٨٦١ نقلا عن المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم ص ٨١.

ومسئول عن رعيته) [١]. فكل فرد فى مجاله مسئول عن حسن سير الأمور العامة والخاصة التى وكلت إليه) [٢].

٣ ـ الطابع الشخصى للمسئولية

إن من أهم ما تتميز به المسئولية فى الإسلام كونها شخصية فردية محضة، بمعنى أن كل شخص يحمل مسئولية نفسه عن الأعمال التى فعلها، ويدل على ذلك آيات التنزيل الحكيم.

يقول د/محمد إبراهيم الشافعى (إن القرآن الكريم يقرر ويؤكد بكل أساليب التقرير وبجميع أنواع التوكيد أن كل إنسان يحمل مسئولية نفسه قاعدة كلية ومبدأ عاما يناط به كل تكليف من تكاليف الإسلام وكل فرع من فروع مسئولياته التى حملنا الله تعالى إياها) [٣].

ويقول (وتعنى شخصية المسئولية أنه لا يعاقب أحد بجرم غيره ولا يقع عليه جريرة أحد سواه، فكل ما ينال المرء من عقاب إنما يكون جزاء له على ما باشره أو تسبب فيه من شر، وكل ما يسبغ عليه من ثواب لا يكون إلا نتيجة لسعيه الشخصى وعمله الفردى الذى باشره بنفسه أو تسبب فيه.

وقد جاءت آيات القرآن الكريم تدعم هذه المبدأ وتثبته تثبيتا حتى صار أصلا من أصول الإسلام العامة، بل وأثبت القرآن الكريم أنه أصل لكل الرسالات ـ السابقة التى جاءت بالهدى ودين الحق، وذلك ليحقق الله عز وجل ويؤصل العدالة التامة الشاملة التى هى هدف الإسلام وغاية جميع الشرائع) [٤].

والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة لذلك سنذكر جزءا منها

يقول سبحانه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٨٦).

---

(١) رواه البخارى فى كتاب: الجمعة/باب: الجمعة فى المدن والقرى (سبق تخريجه).
(٢) دستور الأخلاق فى القرآن ص ١٤٨.
(٣) المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم ص ٩٤.
(٤) نفس المرجع ص٩٥.

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ (سورة النساء الآية: ١١١) ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (سورة الأنعام الآية: ١٦٤).

بمعنى أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله تعالى[١].

ويؤكد ذلك قوله تعالى ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (سورة الطور الآية: ٢١) أى مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أبا أو ابنا[٢].

وقوله ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (سورة المدثر الآية: ٣٨).

يقول ابن عباس وغيره (أى معتقلة) بعملها يوم القيامة[٣].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن كل إنسان مجازى بعمله ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ (سورة غافر الآية: ١٧).

ويقول سبحانه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (سورة فاطر الآية: ١٨).

(يخبر الله تعالى أنه لا تحمل نفس إثما غير إثم نفسها وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى أى ولو كان قريبا إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها كل مشغول بنفسه وحاله)[٤]. لذلك يقول سبحانه ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (سورة الإسراء الآية: ١٥).

ويقول: ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (سورة لقمان الآية: ٣٣).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٩٩.
(٢) المرجع السابق جـ٤ ص ٢٤٢.
(٣) المرجع السابق جـ٤ ص ٤٤٩.
(٤) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٥٥٢.

ويقول: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (سورة الأحقاف الآية: ١٩).

ويوضح القرآن الكريم أن هذا المبدأ الإلهى هو أساس كل تشريع إلهى نزل من عند الله وأرسل به رسله فلقد كان هذا المبدأ مسطرا فى صحف إبراهيم وموسى.

يقول سبحانه ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ (سورة النجم الآيات: ٣٦ ـ ٤١).

يبين سبحانه ما كان أوحاه فى صحف إبراهيم وموسى وهو:

أن كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شئ من الذنوب فإنما عليها وزرها لا يحمله عنه أحد (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) أى كما لا يحمل عليه وزر غيره كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه) [١]. فكل إنسان مجازى بعمله بالعدالة الإلهية، ويصور القرآن الكريم ذلك أيضا فى قصة سيدنا نوح عليه السلام،

فمع كونه نبيا ورسولا إلا أن ذلك لم يشفع لولده الكافر الذى أغرق مع الغارقين لماذا؟ لأنه من الكافرين. لا محاباة فى تشريع الله، كل بعمله ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (سورة هود الآيات: ٤٥ ـ ٤٧).

وكذلك نجد أيضا أن القرآن الكريم أخبر أن امرأة نوح وامرأة لوط سيدخلان النار بسبب خيانتهما. وفى الجانب الآخر زوجة فرعون أخبر القرآن الكريم أنها ستدخل الجنة وذلك لأنها آمنت بالله وأقرت له بالوحدانية برغم أن زوجها كان كافرا بالله وكان من ألد أعداء موسى رسول الله. يقول القرآن الكريم فى تمهيده لحكاية هذا الإخبار ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة التحريم الآية: ٧) ثم يقول القرآن الكريم بعد آيتين ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ

(١) المرجع السابق جـ٤ ص ٢٥٨.

مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة التحريم الآية : ٧).

والقرآن الكريم يصور لنا أخذ البرئ بالمذنب لا على أنه مضاد للشريعة فحسب بل هو كذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية.

يحكى القرآن قول يوسف لإخوته ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۙ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ (سورة يوسف الآية : ٧٩)[١].

كل هذه الآيات تدل بوضوح على المبدأ الأساسى لكل تشريع سماوى ولكل عدالة إنسانية وهو أن كل إنسان يحمل مسئولية نفسه.

وينتج من هذا كله بوضوح أن الثواب والعقاب لا يمكن أن يتأتى فيها أى تحويل أو امتداد أو اشتراك أو التباس حتى بين الآباء والأبناء، وإذا كان آباؤنا وأجدادنا مسئولين مثلا عن الأمثلة التى لقنوها لنا والعادات التى أخذناها عنهم وإذا كنا مسئولين عن الطريقة التى استعملنا بها هذه التركة فلا يجب مطلقا أن نتحمل معهم وزر ما عملوا ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية : ١٤١)[٢] فالإنسان لا يحمل وزر غيره ولا يحمل غيره وزره وكل إنسان مجازى بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

❖ أما ما ورد من بعض الآيات والأحاديث التى يوهم ظاهرها بأن الإنسان يحمل وزر غيره فإنها لو فهمت حق الفهم لرد هذا التوهم.

من ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾(سورة العنكبوت الآية : ١٣) وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ الطور الآية (٢١).

ولو فسرت هاتان الآيتان بما قبلها وما بعدها لفهم المعنى الصحيح لهما.

---

(١) دستور الأخلاق فى القرآن ص١٥٢.
(٢) المرجع السابق ص ١٤٩.

والآيتان لا ترفع المسئولية الفردية ولكنها تضيف على أعمال الإنسان بعض الأعمال الأخرى.

يقول د/ محمد عبد الله دراز (وأول ما نبدأ به أن نزيح فكرة معينة هى أنه ليست المسألة هنا مسألة تحويل كلى يحرم به الفرد الرئيسى فى المسئولية من ثمرة جهوده أو يبرأ من نتائج عمله السئ... هيهات أن يحدث هذا...

والنصوص التى عالجت هاتين الحالتين لم تكف عن تأكيد هذا الواقع، إن ثواب صاحب العمل وعقابه لا يمكن أن ينقص بهذا ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ سورة الطور الآية (٢١) ﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ﴾ سورة العنكبوت الآية (١٢).

فالمسئوليات الفردية تبقى إذن كاملة، وتلك نقطة مفروغ منها، وكل ما فى الأمر أن تذييلا للثواب والعقاب يأتى ـ فيما يبدو ـ من خارج فضلا عما ينتج عن العمل الفردى)[١].

ويقول (ولكن برغم تحديد المسألة على هذا النحو فلا يزال هناك نوع من التعارض مع النصوص الكثيرة التى تنكر ـ فيما رأينا ـ إنكارا مطلقا أن ينسب للإنسان ما ليس من عمله)[٢].

ولرد هذا التعارض يجب أن نبين معنى هذين النصين:

النص الأول: وليحملن أثقالهم....

بقول ابن كثير فى تفسير الآية التى قبل هذه الآية وهى قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (سورة العنكبوت الآية: ١٢). يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا (ولنحمل خطاياكم) أى وآثامكم إن كانت لكم آثام فى ذلك علينا وفى رقابنا، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى، قال الله تعالى

---

(١) ولقد رد الدكتور محمد عبد الله دراز هذا الاعتراض الظاهرى وبين أن الآيتين لو فهمتا حق الفهم لما وجد تعارض. راجع دستور الأخلاق ص ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٢.

تكذيبا لهم (وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ إنهم لكاذبون) أى فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم فإنه لا يحمل أحد وزر أحد قال الله تعالى ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (فاطر الآية : ١٨). ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ (المعارج الآية : ١٠).

أما قوله تعالى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ .... (العنكبوت الآية : ١٣) فهو إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزارا أخرى بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا. كما قال تعالى ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (سورة النحل الآية : ٢٥). وفى الصحيح [١] (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا) [٢].

فالقرآن الكريم يبين أن هؤلاء الكفرة كاذبون فى قولهم (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) ذلك لأنه لا يحمل أحد وزر أحد، ثم بين القرآن الكريم أن هؤلاء الكفرة سيحملون أوزارا مع أوزراهم بسبب ما أضلوا من الناس، ولا شك أن الإضلال من عملهم لا من عمل غيرهم.

يقول الفخر الرازى (قال تعالى ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم ﴾ (العنكبوت الآية : ١٢) وقال بعد ذلك ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ فهناك نفى الحمل وههنا أثبت الحمل فكيف الجمع بينهما؟ فنقول قول القائل : فلان حمل عن فلان يفيد أن حمل فلان خف وإذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئا.

فكذلك ههنا (وما هم بحاملين من خطاياهم) يعنى لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزارًا بسبب إضلالهم ويحملون أوزارا بسبب ضلالتهم.

---

(١) أخرجه مسلم فى الصحيح/كتاب: العلم (٤٨٣١)، والترمذى فى سننه/كتاب: العلم (٢٥٩٨)، وكتاب: فضائل القرآن (٢٨٣١)، وأبو داود فى سننه/كتاب: السنة (٣٩٩٣)، وابن ماجة فى سننه/المقدمة (٢٠١) وأحمد فى مسنده (٢٠٢).

(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٤٠٦.

كما قال النبى ﷺ (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيئا)[١]. رواه مسلم فى كتاب الزكاة[٢].

وبذلك يتبين معنى الآية وهو باختصار كما يلى:-

أن هؤلاء الرؤساء والدعاة والمتبوعين يتحملون مسئولياتهم كاملة عقابا على ما يقومون به من أعمال خاصة، ثم يتحملون عقابا زائدا بسبب إضلالهم التابعين المضلين، فهم قد أبعدوهم بدعواهم الكاذبة عن هداية ربهم، وبذلك يصير هؤلاء الرؤساء والدعاة مذنبين من جهتين.

الأولى: ضلالهم وفسادهم فى أنفسهم.

الثانية: إضلالهم غيرهم حيث أغروهم وزينوا لهم الفساد.

ومن ثم فإنهم سوف يذوقون عقابا على ذنوبهم الخاصة وعقابا على إضلالهم وإفسادهم الآخرين[٣].

يدعم ذلك قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا[٤] فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ (سورة النحل الآية: ٨٨) أى بسبب إفسادهم وإضلالهم للآخرين. ولا شك أن إفسادهم وإضلالهم لغيرهم من أعمالهم وليس من أعمال غيرهم، فهم يستحقون بسبب هذا الإفساد والإضلال أثقالا مع أثقالهم وهى أثقال الضلال والإضلال. مع الاحتراز بأن هؤلاء الذين ضلوا لن يعفوا مطلقا من خطيئتهم والتى هى استسلامهم للضلال وهو معنى قوله تعالى (وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ) وقوله ﷺ (من غير أن ينقص من آثامهم شيئا).

وبذلك يتبين أنه ليس هناك أى أثر من التعارض، وليس هناك ما يحدد القاعدة العامة للمسئولية الفردية، فكل إنسان مسئول عن عمله سواء كان هذا العمل بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر. وعلى ذلك يفهم معنى الحديث الذى رواه الإمام

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢٥ ص ٤١.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه/كتاب: الزكاة (١٦٩١)، والنسائى فى سننه/كتاب: الزكاة (٢٥٠٧)، وابن ماجة فى سننه/المقدمة (١٩٩)، وأحمد فى مسنده (١٨٣٦١، ١٨٣٨١، ١٨٤٠٤، ١٨٤٠٦).

(٣) راجع المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم ص١٠٨.

(٤) أى عذابا على كفرهم وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق كقوله تعالى ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أى ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضا (تفسير ابن كثير ص ٥٨١).

مسلم[١] فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه. (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به) فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله كما جاء فى الحديث (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن ولده من كسبه[٢]) والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه وقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة يس الآية: ١٢)والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضا من سعيه وعمله وثبت فى الصحيح[٣] (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا)[٤].

❖ أما النص الثانى فهو قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ (سورة الطور الآية: ٢١)، أى اتبعناهم ذرياتهم بسبب إيمانهم وسيرهم على النهج الإيمانى الذى سار عليه الآباء.

يقول د/محمد إبراهيم الشافعى (إن هذه الاية الكريمة توهم البعض بأنها تتنافى مع مبدأ شخصية المسئولية وفرديتها، ولكن الناظر المتدبر للآية يرى أنها لا تحوى أدنى تضارب أو تنافى مع المبدأ الذى أكدته ووثقته معظم آيات القرآن الكريم، ذلك لأن الآية الكريمة يخبر الله بها عن فضله وتفضيله وامتنانه وإحسانه على من آمن به وسلك طريقه بأن يضم ويجمع ذريته فى الجنة لتقر عينه بهم ويسعد بمشاهدتهم وقربهم ويطمئن بصحبتهم ورؤيتهم، وبشرط أن يكون الأبناء قد ساروا على نفس الدرب الذى سار فيه الآباء من إيمان خالص بالله عز وجل ومن سلوك طريقه واتباع هديه، وعندئذ تتحقق الأمنية التى طالما راودت قلوب الآباء المؤمنين الذين توجهوا إلى ربهم يسألونه أن تقر أعينهم بأبنائهم فى الدنيا والآخرة، وهذا هدف كل مؤمن

---

(١) أخرجه مسلم فى الصحيح/كتاب: الوصية/باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، وأبو داود فى السنن/كتاب: الوصايا/باب: ما جاء فى الصدقة عن الميت، والترمذى/كتاب: الأحكام/باب: فى الوقف: وأحمد فى المسند (٨٤٨٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه فى السنن/كتاب: التجارات/باب: الحث على المكاسب، وأحمد فى المسند ٤٢/٦، وابن حبان فى الصحيح/كتاب: الرضاع/باب: النفقة والإحسان.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث.

(٤) تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٢٥٨.

صادق ومحب لأبنائه وذريته حبًا حقيقيًا، فمن أحب أحدًا حبًا حقيقيًا تمنى أن يكون معه فى الدنيا والآخرة. ولا يتحقق هذا الحب إلا بالتقاء الأرواح وامتزاج النفوس وائتلاف القلوب على حب الله تعالى وحب رسول الله والسير على الصراط المستقيم)[١].

ثم يقول (أما من كان على خلاف الإيمان بالله فإنه يقلق بال أبيه فى الدنيا والآخرة بل ويصيبه بالهم والحزن الشديد، ألا ترى ما كان من ابن نوح وما يكون من فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لهول الموقف وشدة الكرب يوم العرض والحساب ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس الآيات : ٣٤ ـ ٣٧) فقد تدابروا وتقاطعوا يوم القيامة لأنهم تدابروا وتقاطعوا عقيدة وعملا فى الحياة الدنيا)[٢].

فإيمان الأبناء شرط للحوقهم بآبائهم فى الجنة وانضمامهم إليهم فى النعيم الذى أعطاهم الله تعالى إياه.

أما إذا لم يؤمنوا وإذا لم يسيروا على النهج الإيمانى الذى سار عليه الآباء فإنهم لا يلحقون بهم، لأنهم ليسوا من أبنائهم ـ الروحيين ـ وليسوا من ذريتهم ـ تلك الذرية الإيمانية ـ لذلك يقول الله لسيدنا نوح عليه السلام وهو يدعو الله لأن ينجى ولده قال له الله ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (سورة هود الآية : ٤٦).

ولذلك نجد أيضًا الآيات القرآنية توضح أن من اتبع وأطاع وأحب رسول الله فهو معه يقول الله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (سورة النساء الآية : ٦٩)[٣] وكما ورد فى كثير من أحاديث الرسول ﷺ التى تقرر أن المتحابين فى

---

(١) المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم ص ١١١.

(٢) المرجع السابق ص ١١٢ .

(٣) ذكر ابن كثير فى تفسيره سبب نزول هذه الآية (عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون فقال له النبى ﷺ يا فلان مالى أراك محزونًا؟ فقال يا نبى الله شئ فكرت فيه فقال ما هو؟ قال نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك فلم يرد عليه النبى ﷺ، فأتاه جبريل بهذه الآية (ومن يطع الله والرسول ...) فبعث النبى ﷺ إليه فبشره (تفسير ابن كثير ص ٥٢٢.

الله سوف يجتمعون فى الجنة (أنت مع من أحببت) (والمرء مع من أحب) رواه البخارى فى كتاب الأدب [١].

فالالتقاء فى الجنة معا بسبب اللقاء الروحى فى الدنيا وبسبب اللقاء الإيمانى فى الدنيا، ولا يلزم أن يكونوا فى درجة واحدة من هذا النعيم، فهم فى النعيم الواحد ودرجاتهم متفاوتة.

وعليه فإن هذا الاتحاد فى جنة الله لا ينفى مطلقًا التدرج فى الجزاء ولا يستتبع بالضرورة اختلاطًا فى القيم، فنحن ندرك جيدًا أن أعضاء جمعية واحدة متدرجون فى مناصبهم مختلفون فى وظائفهم متفاوتون فى استحقاقهم شأن القطار الذى يقل مجموعة مختلفة من طوائف المسافرين [٢].

وبذلك يتبين أن المعنى لقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (سورة الطور الآية: ٢١). أى أن الأولاد يلحقون بالآباء بسبب اتباعهم لنهجهم الصحيح فى السير على الطريق السوى والصراط المستقيم، فهؤلاء الأولاد لا يكتفون ببنوتهم الطبيعية حتى يضيفوا إليها بنوة روحية [٣].

(إذا فسرنا الآية على هذا النحو وقابلناها كما ينبغى بمجموع النصوص الأخرى فإنها لا تحتوى أدنى تضارب مع المبدأ العام مبدأ المسئولية الفردية) [٤].

نخلص من هذا: أنه لا تعارض بين هذه الآية ومجموع الآيات الدالة على المسئولية الفردية، وذلك لأن الأبناء الذين يلحقون بالآباء هم الذين آمنوا بالله ورسله وساروا على نهج آبائهم الإيمانى - على أنهم وإن كانوا معا فى النعيم فلا يمنع أن تتفاوت درجات هذا النعيم على حسب أعمالهم. لذلك جاء فى القرآن تكميلا لهذه الآية التأكيد على المسئولية الفردية (كل امرئ بما كسب رهين).

---

(١) أخرجه البخارى/كتاب: المناقب/باب: مناقب عمر بن الخطاب، كتاب: الأدب/باب: ما جاء فى قول الرجل "ويلك"، وباب: علامة الحب فى الله، كتاب: الأحكام/ باب: القضاء والفتيا فى الطريق، ومسلم/كتاب: البر والصلة والآداب، والترمذى فى سننه/كتاب: الزهد، وأبو داود/كتاب: الأدب.

(٢) دستور الأخلاق فى القرآن ص ١٥٩.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

وبذلك يتبين أنه مما تتميز به المسئولية فى الإسلام أنها فردية محضة كل إنسان مجازى بعمله.

ما يترتب على مبدأ المسئولية فى الإسلام بمميزاتها

ويترتب على إثبات المسئولية ـ وخاصة فى مجال دراستنا ما يلى : ـ

أولا : رد إدعاء اليهود والنصارى بأنهم أولياء لله من دون الناس وأنهم بسبب هذا يدخلون الجنة وحدهم دون غيرهم.

فأول ما يلفت نظرنا فيما يترتب على إثبات المسئولية فى الإسلام مواجهة أولئك الذين كانوا يرون أنفسهم فى مستوى خاص بهم وأنهم من أصحاب الامتيازات إنهم يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون ولا مسئولية عليهم فيما يقولون وفيما يفعلون وهؤلاء الناس على الأخص اليهود والنصارى.

يقول القرآن فيما يحكى قولهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية : ٨٠).

وقولهم : ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (سورة البقرة الآية : ١١١).

وقولهم : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (سورة المائدة الآية : ١٨).

وتبين الآيات بأنها أمانى كاذبة وأنها افتراء على الله بدون علم ولا برهان وأنهم يقولون ما لا يعلمون.

يبين الله سبحانه وتعالى بطلان أقوالهم وذلك على طريق الإلزام والتبكيت أى إن صح قولكم إنكم أولياء الله ـ أو أبناء الله وأحباؤه ـ فلأى شئ يعذبكم فى الدنيا بالقتل والأسر والمسخ ، وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم فى النار أياما معدودة بعدد أيام عبادة العجل أى لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فلم عبدتم غير الله. ولم أعد

لكم نار جهنم على كفركم وافترائكم. لذلك يقول الله (بل أنتم بشر) عطف مقدر ينسحب عليه الكلام أى لستم كذلك (بل أنتم بشر ممن خلق). أى من جنس خلق الله تعالى من غير مزية لكم عليهم (يغفر لمن يشاء) أن يغفر له من أولئك المخلوقين وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله (ويعذب من يشاء) أن يعذبه منهم وهم الذين كفروا به وبرسله مثلكم (ولله ملك السموات والأرض وما بينهما) من الموجودات لا ينتمى إليه سبحانه شئ منها إلا بالمملوكية والعبودية والمقهورية تحت ملكوته يتصرف فيهم كيف يشاء إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا فأنى لهم ادعاء ما زعموا؟؟ (وإليه المصير) فى الآخرة خاصة لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازى كلا من المحسن والمسئ مما يستدعيه عمله من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه)[١].

فالله سبحانه وتعالى يبين لهم أن المدار كله فى دخول الجنة إنما هو بقدرته وبحكمته فهو الذى يجازى ويحاسب كلا من المحسن والمسئ على حسب عمله.

ولذلك يقول القرآن الكريم - على سبيل التحدى - ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة البقرة الآيات: ٩٤ - ٩٦)

أى إن كانت لكم الجنة أو نعيم الدار الآخرة عند الله خالصة أى سالمة لكم خاصة بكم - كما تدعون - وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى - من دون الناس (فتمنوا الموت) فإن من أيقن بدخول الجنة اشتاق إلى التخلص إليها من دار البوار وقرارة الأكدار لا سيما إذا كانت خالصة له.[٢] (إن كنتم صادقين) هذا أمر معلق على شرط مفقود وهو كونهم صادقين فلا يكون الأمر موجودا والغرض منه التحدى وإظهار كذبهم فى دعواهم[٣].

---

(١) إرشاد العقل السليم جـ٢ ص ٢٣.

(٢) المرجع السابق بتصرف ص١٥٨.

(٣) مفاتيح الغيب جـ٣ ص ٢٠٧.

(ولئن يتمنوه أبدا) كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر سيق من جهته سبحانه لبيان ما يكون منهم من الإحجام عما دعوا إليه الدال على كذبهم فى دعواهم (بما قدمت أيديهم) أى بسبب ما عملوا من المعاصى الموجبة لدخول النار كالكفر بالنبى ﷺ والقرآن وتحريف التوراة.

(والله عليم بالظالمين) أى بهم، وإيثار الإظهار على الإضمار لذمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى جميع الأمور التى من جملتها ادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم، والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه أى عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصى المفضية إلى أفانين العذاب وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدى إلى ذلك[1]. ثم يقول سبحانه (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة). أى على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم.

وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم من باب عطف الخاص على العام (والله بصير بما يعملون) أى خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازى كل عامل بعمله)[2].

وعلى ذلك يتبين كذب اليهود والنصارى فى ادعائهم أنهم أولياء الله وأنهم يدخلون الجنة وأن لهم من الامتيازات ما ليس لغيرهم حيث إن القرآن الكريم يبين أن المدار فى دخول الجنة والولاية هو المحاسبة والمجازاة والمسئولية الفردية كل بعمله وعلى حسب أعماله التى عملها.

وهم قد حرفوا شرع الله وأشركوا بالله ولم يؤمنوا بالرسول وبالقرآن، وعليه فهم أصحاب النار ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٨١).

ثانيا ـ ومما يترتب على ما قرره الإسلام من شخصية المسئولية.

فساد القول بالخطيئة الأصلية وفساد ما يسمى بوراثة الخطيئة ذلك أن كل إنسان مسئول عن أعماله التى عملها.

---

(١) إرشاد العقل السليم جـ١ ص ١٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير ص ١٢٨، ١٢٩.

فالإسلام لا يعرف الخطيئة الموروثة ؛ إذ يبين أنه لا يحاسب أحد بذنب أحد ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (سورة الزلزلة الآيات: ٧ ،٨) ذلك أن العدالة الإلهية تقرر أن ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (سورة المدثر الآية : ٣٨).

إن الإسلام يقرر أن كل ذنب أو إساءة أية نفس باشرته أو تسببت فيه يقع وباله عليها وحدها لا يتعداها إلى غيرها وأن كل عمل صالح طيب باشره الإنسان أو تسبب فيه ينال ثوابه بنفسه لا ينسحب إلى غيره.

وأن الثواب والعقاب كلاهما لا يمكن أن يطرأ عليهما تحويل أو تغيير فكل عامل يقع عليه تبعة عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر[١].

وأن الأبناء لا يحملون من وزر الآباء ﴿ لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ (سورة لقمان الآية: ٣٣)وإنما كل على حسب أعماله. وبذلك يتبين فساد القول بوراثة الخطيئة.

ومبدأ المسئولية الفردية له أثره القوى على اتقاء الإنسان للوقوع فى الأخطار وله أثره القوى فى تهذيب النفس والمجتمع.

بل إن هذا المبدأ هو الذى يتفق مع الكرامة الإنسانية التى كرم الله بها الجنس البشرى. أما القول بوراثة الخطيئة فإنه ولا شك قول يؤثر تأثيرا سيئا على الإنسان فى نظرته لنفسه. فهو يوحى بالمهانة الإنسانية ويثير القلق والفزع فى النفوس بل ويؤثر تأثيرا سيئا على المجتمع حيث إن الإنسان كما ورث الخطيئة ولم يخطئ فسيعتمد على غيره فى حمل خطاياه ومادام غيره مسئولا عن ذنوبه فإنه لن يبالى بهذه الذنوب وعندئذ تملأ الخطيئة الأرض[٢].

ولقد تحدث أحد النصارى عن هذا القلق النفسى التى تثيره الخطيئة الموروثة.

يقول د/نظمى لوقا (وإن أنسى لا أنسى ما واكبنى صغيرا من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى وما سيقت فيه من سياق مروع يقترن بوصف جهنم، ذلك الوصف المثير مخيلة الأطفال وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران جزاء وفاقا

---

(١) سعيد حوى: الرسول ﷺ جـ٢ ص١٨١.

(٢) المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم ص ١٠٢.

على خطيئة آدم بإيعاز من حواء..، وأنه لولا النجاة على يد المسيح الذى فدى البشرية بدمه الطهور لكان مصير البشرية الهلاك المبين)[١].

ويقول (وإن أنسى لا أنسى القلق الذى ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح أين هم؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة؟ فكان لابد من عقيدة الإسلام - ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة وتطمئنهم إلى العدالة التى لا تأخذ البرئ بالمجرم أو تزر الولد بوزر الوالد وتجعل للبشرية كرامة مضمونة)[٢].

ويقول (إن المسئولية هى أساس الكرامة الإنسانية وأساس كل حرية وكل أخلاق ممكنة وهذا ما قطع به الإسلام ووضع به الحجر الإساسى لكرامة بنى آدم. يقول سبحانه ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ (سورة النجم الآيات ٣٩-٤١).

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (سورة الأنعام الآية: ١٦٤).

هذه المسئولية الإنسانية التى هى أساس كل كرامة الإنسان)[٣].

ويقول (إن الخطيئة الأولى الموروثة والتى تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء فيمضى فى حياته مضى المريب المتردد ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث .. إن هذه الفكرة تسمم ينابيع الحياة كلها)[٤].

وهكذا يتبين أن إثبات المسئولية الفردية يبطل القول بوراثة الخطيئة تلك الفكرة الموجبة للقلق والشك أو على حد التعبير السابق تسمم ينابيع الحياة كلها.

ثالثا: يتبين لنا مما قرره الإسلام من المسئولية الفردية:

أنه لا يخلص الإنسان سوى عمله لا عمل غيره، وأنه لا يفدى الإنسان سوى عمل الإنسان لا الفداء عن طريق صلب نبى أو رسول.

فلكى ينجو الإنسان من عذاب الله لابد من الإيمان بالله سبحانه وتعالى وعمل الصالحات وذلك حيث بينت آيات القرآن الكريم أن النجاة الأخروية والسعادة

---

(١) د/نظمى لوقا: محمد الرسالة والرسول ص ٧٥.
(٢) المصدر السابق ص٧٦.
(٣) المصدر السابق ص٧٧.
(٤) المصدر السابق ص٧٨.

الأبدية إنما تتوقف على إيمان المرء بالله وعلى ما يقدمه لنفسه من علم الصالحات، وآيات القرآن الكريم فى ذلك صريحة.

يقول سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية (٦٢). ولما قال اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة إلا من كان هود أو نصارى) رد عليهم القرآن بقوله ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية ١١١ ـ ١١٢). أى من أسلم وأخلص العمل لله وحده لا شريك له ضمن له تعالى على هذا الإيمان تحصيل الأجور وآمنهم مما يخافونه من المحذور (ولا خوف عليهم) فيما يستقبلونه (ولا هم يحزنون) على ما مضى مما يتركونه[1].

فلقد بين سبحانه أن إسلام الوجه لله والإخلاص فى العمل هو سبب النجاة، فلا يخلص الإنسان ولا يفديه ـ إن صح هذا ـ سوى عمله لا عمل غيره وبذلك يبطل الاعتقاد بوراثة الخطيئة ويبطل الاعتقاد أيضا بأن المسيح صلب من أجل هذه الخطيئة وأن صلب المسيح من أجل البشر هو طريق النجاة والسعادة، إن طريق النجاة الصحيح هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى والعمل الصالح. والسعادة الحقة بعمل الإنسان لا بعمل غيره.

من تكريم الإسلام للإنسان: إلغاء الواسطة بين الله والإنسان

ثم ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى مهمة وهى: القول بأن الخطيئة تبعد الإنسان عن الله وتفصله عن الله وأنه لكى تتصل حلقات المودة بين الإنسان والله لابد من الخلاص عن طريق الإيمان بفداء المسيح، أو الخلاص من الخطيئة على يد كاهن وذلك باعتراف المخطئ بذنبه للكاهن فيحصل على المغفرة على يد الكاهن[2] ـ كما بينا فى الفصل الخاص بالشعائر.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ١ صـ١٥٥ .

(٢) فالكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية تعتقد أنه إذا لم يعترف الخاطئ بكل خطية من الخطايا لا يغفر له. يقول المطران أفلاطون: الاعتراف سر به يغفر الله على يد الكاهن خطايا المؤمنين متى اعترفوا بها بإخلاص وآمنوا دون شك بالمسيح أ . هـ (الخلاصة الشهية فى أخص العقائد الأرثوذكسية ص ١٣٤). وفى علم اللاهوت النظامى عن عقيدة الكاثوليك (وأنه لا يمكن أن تغفر خطيئة ترتكب بعد المعمودية بدون أن يعترف بها مرتكبها للكاهن الذى له سلطان الحل والربط) علم اللاهوت النظامى ص ٩٨٣ ، ١١٣٩.

يبين الإسلام فساد هذا الاعتقاد.

ذلك أن الإسلام يقرر أن الإنسان إذا زلت قدمه وعصى ربه فإن الله سبحانه وتعالى فتح له باب التوبة والتقرب إليه سبحانه.

يقول سبحانه ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (سورة الزمر الآية: ٥٣).

يقول د/ يوسف القرضاوى (لقد كان من دلائل تكريم الله للإنسان فى نظر الإسلام أن فتح له باب التقرب إليه سبحانه وتعالى أنى شاء، ومتى شاء، ولم يحوجه إلى وسطاء يتحكمون فى ضميره ويقفون حجابا بينه وبين ربه.

يقول الله تعالى مخاطبا رسوله الكريم ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٨٦).

ويقول فى آية أخرى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (سورة غافر الآية: ٦٠).

وقوله ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٥٢).

ويعلن الحديث القدسى: (أن من تقرب إلى الله شبرا تقرب الله إليه ذراعا ومن تقرب إلى الله ذراعا تقرب الله إليه باعا) من حديث رواه البخارى[١].

لا حاجة بالإنسان إذن إلى وساطة كاهن يصل عن طريقه إلى الله، ولا يقبل الله منه عبادة من غير توسطه، فليس فى الإسلام كاهن ولا كهنوت)[٢]. ويقول: (وبهذا يستطيع الإنسان المسلم أن يقرع باب ربه متى شاء وأين شاء بعيدا عن سيطرة طبقة الدجاجلة المدعين للسمسرة بين الله وعباده، وليس هذا لخاصة الأتقياء الصالحين دون العصاة المذنبين. كلا فإن باب الله مفتوح على مصراعيه لكل من دعاه ورجاه ووقف على عتبته ضارعا مستغفرا وإن اقترف قبل ذلك كبائر الإثم وفواحش الذنوب.

---

(١) أخرجه البخارى/كتاب: التوحيد/باب: قول الله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ سورة آل عمران الآية: (٢٨)، وقوله ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ (سورة المائدة الآية: ١١٦). ومسلم/كتاب: الذكر والدعاء والتوبة/باب: الحث على ذكر الله، والترمذى/كتاب: الدعوات، وابن ماجة/ كتاب: الأدب.

(٢) الخصائص العامة للإسلام ص ٧٤.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ١٣٥).

وفى الحديث القدسى الصحيح[١]: (ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم) رواه مسلم من حديث أبى ذر)[٢].

وعلى ذلك يتبين مدى أصالة المسئولية الفردية التى قررها الإسلام فكل إنسان مسئول عن عمله، وإن زلت قدمه وعصى ربه فإنه لكى يتخلص من عقوبة هذه المعصية يرجع إلى الله سبحانه وتعالى ويتقرب إليه، فهو غفار الذنوب، وقابل التوب، لمن تاب وأناب إليه، وهذا من تكريم الإسلام للإنسان. فالاعتراف بالمعصية يكون لله لا لكاهن فليس بين الله وبين الناس حجاب، ولا واسطة، فهو سبحانه قريب من عباده متى دعوه، وسألوه، أجابهم.

(١) أخرجه مسلم/كتاب البر والصلة والآداب.
(٢) المرجع السابق ص ٧٥.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

القول الحق
فى عيسى بن مريم

obeikandl.com

obeikandl.com

عيسى بن مريم[1]

لقد تحدث القرآن عن عيسى بن مريم، وأبرز الجوانب التى تهم المؤمنين فى إيمانهم وعقيدتهم، وصحح العقائد الفاسدة التى اعتقدها الناس فى عيسى بن مريم.

فلقد رسم القرآن الكريم صورة صادقة عن عيسى بن مريم تتفق مع كونه عبد الله ورسوله، فعيسى إنما هو ابن مريم، أى ولد من مريم الطاهرة البريئة التى اصطفاها الله سبحانه وتعالى على نساء العالمين ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة آل عمران الآية: (٤٢).

يقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ أولا حين تقبلك من أمك ورباك واختصك بالكرامة النسية ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ مما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ ﴾ آخرًا ﴿ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء[2].

نشأت مريم نشأة طاهرة حيث التبتل والعبادة. ويحكى القرآن الكريم أنها بينما هى على حالة من العبادة إذ تمثل لها الملك بشرا سويا ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ

---

(١) إن القرآن الكريم قد أطلق على المسيح عيسى بن مريم ليقرع آذان النصارى بأنه ابن مريم لا ابن الله. راجع الأديان فى القرآن ص ٢٩٥.

(٢) الكشاف جـ١ ص ٤٢٩.

تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ (مريم الآيات: ١٨ ـ ٢٧).

ولما ولدته وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم سواء فى ذلك من يعرف نسكها وعبادتها ومن لا يعرف، لأنها فاجأتهم بأمر غريب وهى المعروفة بينهم بأنها عذراء وليس لها بعل، فكانت المفاجأة داعية الاتهام لأن عند المفاجأة تذهب الروية ولا يستطيع المرء أن يقابل بين الماضى والحاضر وخصوصا أن دليل الاتهام قائم وقرينته أمر عادى لا مجال للريب فيه عادة، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها من هذه المفاجأة فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام لينقض الاتهام من أصله ويأتى على قواعده، ويفاجئهم بالبراءة وبرهانها الذى لا يأتيه الريب ليعيد إلى ذاكرتهم ما عرفوه فى نسكها وعبادتها ولذلك نطق الغلام وهو قريب عهد بالولادة[١].

(فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال عظم التوكل على ذى الجلال ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[٢] (سورة مريم الآيات: ٢٩ ـ ٣١).

نطق السيد المسيح فى المهد ليكون كلامه إعلاما صريحا ببراءة أمه، وأنه لم يكن إلا عبد الله ولد من غير أب.

فالمسيح بشر ولد من مريم لذلك نسب إلى مريم.

يقول الزمخشرى فى تفسير قول الله تعالى (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) فإن قلت: لم قيل عيسى بن مريم والخطاب لمريم؟ قلت: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا الأمهات فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه)[٣].

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص١٩.
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص٥٧٦.
(٣) الكشاف جـ١ ص ٤٣٠.

عيسى بن مريم رسول الله

ولقد حدد القرآن الكريم رتبة عيسى بن مريم بأنه رسول الله أرسله الله إلى نبى إسرائيل لدعوتهم إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ولتصحيح عقيدتهم التى انحرفوا بها عن رسالة موسى عليه السلام. (ذلك أن بنى إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وحرفوا شريعة الله التى جاءهم بها موسى عليه السلام وانحرفوا عن الطريق الواضح وما أقامهم عليه الأنبياء من السبيل السوى وخرجوا إلى الإفراط والتفريط)[١]. لذلك أرسل الله عيسى بن مريم عبده ورسوله ليدعوهم إلى التوحيد الخالص إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (سورة النساء الآية: ١٧١). أى أن القول فى عيسى بن مريم أنه رسول الله.

يقول أبو السعود (أى أنه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها)[٢].

ثم يبين القرآن الكريم أنه رسول من جنس رسل الله لا فرق بينه وبين رسل الله فى مهمة الرسالة.

يقول سبحانه ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ (سورة المائدة الآية: ٧٥). أى ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها[٣]. فالمسيح ابن مريم ما هو إلا رسول كرسل الله السابقين المؤيدين بالمعجزات تأييدا من الله وتصديقا لهم فى دعوى الرسالة.

ثم يحدد القرآن الكريم رسالة عيسى بن مريم - أى يحدد القوم الذين أرسل إليهم عيسى. يقول سبحانه ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٤٩).

ويقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (سورة الصف الآية: ٦).

---

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ٣٩٢.
(٢) إرشاد العقل السليم جـ١ ص ٦١٢.
(٣) مفاتيح الغيب جـ١٢ ص٦٥، إرشاد العقل السليم جـ١ ص٧٦.

أى أنه رسول الله لبنى إسرائيل مصدقا لما جاءت به التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعده وهو النبى الأمى العربى أحمد.

أول شئ فى دعوة الرسل توحيد الله

يبين القرآن الكريم أن الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وعبادة الله وحده لا شريك له هى دعوة الأنبياء والرسل جميعا.

يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٩٢).

يقول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير فى تفسير هذه الآية (إن دينكم دين واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له)[1].

فالدعوة الأساسية لرسل الله جميعا هى التوحيد الخالص.

يقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٢٥).

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ (سورة النحل الآية: ٣٦).

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ (سورة النحل الآية: ٢).

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (سورة الزخرف الآية: ٤٥).

فالسمة الأساسية للرسالات السماوية توحيد الله عز وجل، والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة نذكر منها ما يلى:-

يقول سبحانه عن نوح ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٥٩).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ١٩٣.

obeikandl.com

وعن رسول الله هود ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٦٥).

وعن رسول الله صالح ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٧٣).

وعن رسول الله شعيب ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٨٥).

ورسول الله موسى دعا بنى إسرائيل إلى توحيد الله عز وجل يحكى القرآن الكريم قول موسى لقومه ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (سورة طه (٩٨).

فدين الأنبياء والرسل واحد ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (سورة الشورى الآية: ١٣) ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٣٦).

عيسى بن مريم ما دعا إلا إلى التوحيد

إن عيسى بن مريم يتفق مع سائر الأنبياء والرسل فى دعوته إلى التوحيد الخالص والتنزيه الذى لا يشوبه شائبة.

ولقد دلت آيات القرآن الكريم على أن عيسى ما دعا إلا إلى التوحيد.

ذلك أن آيات القرآن الكريم تنص فى صراحة ووضوح على أن عيسى دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل وعبادة الله وحده لا شريك له فلا رب غيره ولا معبود سواه.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة نذكر منها ما يلى:-

١ ـ من ذلك قوله تعالى على لسان المسيح: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (سورة آل عمران الآيات (٥٠ ـ ٥١).

ومقصود من قوله (إن الله ربى وربكم فاعبدوه) ـ إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكيلا يتقولوا عليه الباطل فيقولون إنه إله وابن إله، لأن إقراره لله بالعبودية يمنع ما تدعيه جهال النصارى عليه.

ثم قال (فاعبدوه) والمعنى أنه تعالى لما كان رب الخلائق بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه، ثم أكد ذلك بقوله (هذا صراط مستقيم)[١].

٢ ـ من ذلك أيضا قول المسيح ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (سورة المائدة الآية: ٧٣).

لم يفرق عيسى عليه السلام بينه وبينهم فى أنه عبد مربوب كمثلهم.

ثم قال (إنه من يشرك بالله) فى عبادته أو فيما هو مختص به من صفاته أو أفعاله فقد حرم الله عليه الجنة التى هى دار الموحدين[٢].

(والحال أن المسيح قال لهم ضد ما يقولون أمرهم بعبادة الله وحده معترفا بأنه ربه وربهم، فاعترف بأنه عبد مربوب لله تعالى، ودعا بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم أن يعبدوا الله وحده الذى يعبده هو "إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة" أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص، وقفى عليهم بالتحذير من الشرك والوعيد عليه ببيان أن الحال والشأن الثابت عند الله تعالى هو أن كل من يشرك بالله شيئا ما، من ملك أو بشر أو كوكب أو حجر أو غير ذلك بأن يجعله ندا لله أو متحدا به ـ من يشرك بالله هذا الشرك ونحوه فإن الله يحرم عليه الجنة فى الآخرة، بل هو قد حرمها عليه فى سابق علمه وبمقتضى دينه الذى أوحاه إلى جميع رسله فلا يكون له مأوى ولا ملجأ يأوى إليه إلا النار دار العذاب والهوان، وما لهؤلاء الظالمين لأنفسهم بالشرك من نصير ينصرهم ولا شفيع ينقذهم)[٣].

٣ ـ من ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (سورة الزخرف الآية: ٦٣ ـ ٦٤).

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٨ ص ٦٦.
(٢) الكشاف جـ١ ص ٦٣٤.
(٣) تفسير المنار جـ٦ ص ٤٠٠.

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أى بالنبوة ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ قال ابن جرير يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فيما أمركم به ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما جئتكم به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى أنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وعلا وحده[١].

٤ ـ ما ذكره القرآن الكريم عما سيكون يوم القيامة بين الله وعيسى بن مريم والتى يعترف فيها عيسى بن مريم بأنه ما دعا قومه إلا إلى التوحيد الخالص أى عبادة الله وحده لا شريك له. يقول سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة المائدة الآيات: ١١٦ ـ ١١٧).

يقول الفخر الرازى (وهذا الكلام إنما يذكره الله لعيسى يوم القيامة، ومنهم من قال إنه تعالى قال هذه الكلام لعيسى حين رفعه إليه، وتعلق بظاهر قوله (وإذ قال الله) وإذ تستعمل للماضى.

والقول الأول أصح لأن الله تعالى عقب هذه القصة بقوله (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) والمراد به يوم القيامة)[٢]. وأيضا لأن الله قدم هذه القصة بقوله (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم).

والاستفهام فى قوله (أأنت قلت للناس ....) لا يقصد به حقيقته لأن الله عليم بكل شئ وإنما يقصد به أمران:.

أولهما: توبيخ النصارى الذين غيروا عقيدة المسيح الحقه وادعوا عليه ما لم يقله، ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ فى تكذيبهم وأشد فى توبيخهم وتقريعهم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص ١٣٣.
(٢) مفاتيح الغيب جـ١٢ ص ١٤٢.

ثانيهما: تعريف عيسى عليه السلام أن قومه غيروا بعده وزاغوا عن مبادئه[١].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (سورة المائدة الآية: ٧٧).

(ثم تذكر الآيات أن عيسى عليه السلام يبادر فيدفع عن نفسه ما نسب إليه ـ زورا وبهتانا ـ وينزه ربه عن الشريك والند والصاحبة والولد فيقول (سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) أى ليس لى أن ادعى لنفسى ما ليس من حقها فعيسى إذًا مربوب وليس برب ولهذا أسند ما نسب إليه إلى علم ربه فقال.

(إن كنت قلته فقد علمته) فلو صدر منى شئ مما نسب إلى لعلمته يارب فلا يخفى عليك ما قلته أورددته فى نفسى وأضمرته ولم أظهره، ولذا قال (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) أى إنك تعلم سرى وما انطوى عليه ضميرى الذى خلقته ولا أعلم شيئا مما استأثرت به من غيبك وعلمك (إنك أنت علام الغيوب) ما كان وما يكون وما لم يكن وما هو كائن.

ومنطوق هذا التذييل تقرير لقوله (تعلم ما فى نفسى) لأنه يفيد أن الله يعلم الغيوب كلها، ومفهومه تقرير لقوله (ولا أعلم ما فى نفسك) لأنه يفيد أنه لا يعلم الغيب غيره تعالى، وتصدير الجملة بـ (إن)وتوسيط ضمير الفصل (أنت) وبناء المبالغة فى (علام) والجمع المعرف باللام (الغيوب) كل ذلك يدل على أنه لا يعزب عن علم الله شئ البتة)[٢].

(ثم صرح عيسى بأن ما دعا قومه إلا إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة فقال: (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به) أى بإبلاغه لهم، ثم فسره بقوله (أن اعبدوا الله ربى وربكم).

ثم يخبر عيسى عليه السلام بأنه ظل قائما بحراستهم ورقابتهم وتذكيرهم بكلمة التوحيد والبعد بهم عن كل مظاهر الشرك مدة وجوده بين أظهرهم فيقول (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم) أى الحفيظ

---

(١) القرآن وعقائد أهل الكتاب ص ٢١١.

(٢) الفتوحات الإلهية جـ١ ص ٥٤٦. نقلا عن المرجع السابق ص ٢١١.

لأعمالهم وأقوالهم وسائر ما يصدر منهم من توحيد أو شرك (وأنت على كل شئ شهيد)[١].

والشاهد من هذه الآيات: أن عيسى عليه السلام يعترف بالعبودية لله وحده لا شريك له ويعلن براءته التامة من قول الشرك واعتقاد النصارى بذلك لأنه يعلن أنه ما دعا إلا إلى التوحيد الخالص.

هذه هى رسالة المسيح الحقة: دعوة بنى إسرائيل إلى وحدانية الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، ولا شك أن المسيح فى دعوته إلى التوحيد يتفق مع سائر الأنبياء والمرسلين. وهذا يدل على أن المسيحية وما تدعيه من أن المسيح إله تجسد فى صورة بشرية ليست هى مسيحية المسيح.

ذلك أن المسيح دعا إلى التوحيد الخالص، دعا إلى توحيد الله عز وجل المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص بشرى، والمنزه عن الشريك والولد والصاحبة.

ولقد تبرأ المسيح عيسى بن مريم من معتقدات النصارى وأعلن أنه أقر بالعبودية لله وحده لا شريك له.

إبطال القرآن الكريم لاعتقاد النصارى بألوهية المسيح وأدلة البطلان

لقد دل القرآن الكريم على أن عيسى بن مريم بشر رسول وأنه كسائر الرسل ما دعا إلا إلى التوحيد، ولكن القوم حرفوا عقيدته وشوهوا رسالته فأطلقوا العنان لأنفسهم وادعوا أن المسيح عيسى بن مريم ليس بشرا عاديا إنما هو إله تجسد فى صورة بشرية.

ولقد رد القرآن الكريم على هذا التحريف الذى أفسد وشوه الديانة التى جاء بها عيسى عليه السلام وجعلها أشبه بمعتقدات المشركين والوثنيين.

وفى بياننا لرد القرآن الكريم على النصارى نحب أن ننبه:

إلى أن النصارى ادعوا أن المسيح إله وابن إله أى أنه الله الابن.

والقرآن الكريم أبطل كون المسيح إلها، وأبطل كونه ابن الله أو ولد الله.

وقبل أن نورد الآيات التى تبطل ألوهية المسيح نبين أن القرآن الكريم قطع على المسيحيين حجة الاستشهاد بالأناجيل وبأقوال المسيح، ذلك أن القرآن الكريم يبين

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٢.

أن الأناجيل قد حرفت فلذلك لا يصح الاستشهاد بها على ألوهية المسيح. وكذلك أيضا فإن المسيح ما دعا الناس إلا إلى الله وحده لا شريك له.

١ ـ إشارة القرآن الكريم إلى تحريف الإنجيل.

من المسلم به أننا نعترف بأن الله أنزل على عيسى الإنجيل.

يقول سبحانه ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة المائدة الآية: ٤٦).

فالقرآن الكريم يحدثنا أن الإنجيل الذى أنزل على عيسى هو كتاب هداية ونور لما فيه من دعوة الناس إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده لا شريك له ولذلك فهو موعظة للمتقين لأنهم هم الذين يهتدون بهدايته.

هذه هى مواصفات الأناجيل الذى أنزل على عيسى، ولكن أين هذا الإنجيل؟

إن الأناجيل الموجودة حاليا ليست هى الإنجيل الذى أنزل على عيسى لذلك فهى منسوبة إلى إصحابها (متى ـ مرقس ـ لوقا ـ يوحنا) لا إلى عيسى.

وكذلك أيضا التعاليم والمعتقدات التى توجد فيها ليست هى تعاليم الإنجيل الذى أنزل على عيسى.

لذلك نجد أن آيات التنزيل الحكيم تبين أن أهل الكتاب قد حرفوا كتبهم وكتموا الحق وأخفوه.

يقول ابن القيم: قد وبخ الله اليهود والنصارى وبكتهم على لسان رسوله بالتحريف والكتمان والإخفاء فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٧١).

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٥٩).

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٧٤).

وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ (سورة المائدة الآية : ١٥).

أما التحريف فقد أخبر سبحانه عنه فى مواضع متعددة، وكذلك لى اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه فهذه خمسة أمور.

أحدها : لبس الحق بالباطل وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل.

الثانى : كتمان الحق.

الثالث : إخفاؤه وهو قريب من كتمانه.

الرابع : تحريف الكلم عن مواضعه، وهو نوعان :

تحريف لفظه ـ وتحريف معناه.

الخامس : لى اللسان به ليلبس على السامع اللفظ المنزل بغيره.

وهذه الأمور إنما ارتكبوها لأغراض لهم دعتهم إلى ذلك[١].

فالقرآن الكريم قد أخبر أن أهل الكتاب قد أوتوا نصيبا من الكتاب فنسوا حظا مما ذكروا به وحرفوا جزءا آخر.

وفى ذلك يقول فى حق اليهود ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ (سورة المائدة الآية : ١٣)[٢].

وفى حق النصارى يقول ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ (سورة المائدة الآية : ١٤).

---

(١) هداية الحيارى ص ١٠٥.

(٢) إلى غير ذلك من الآيات التى وردت فى تحريف اليهود للتوراة ﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ (سورة البقرة الآية : ٧٥) ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ (سورة البقرة الآية : ٧٩).
﴿ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران الآية : ٧٥).
وقوله ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ (سورة النساء الآية : ٤٦).

ويقول مخاطبا كلا الفريقين ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (سورة المائدة الآية: ١٥).

يقول د/إبراهيم سلامة (وهنا نحب أن ننبه إلى حقيقة هامة هى أن الآيات التى تحدثت عن تحريف أهل الكتاب لما أتوا من كتب الله كلها واردة فى حق اليهود خاصة، ولم يرد فى حق النصارى إلا قوله تعالى (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به) [(١)]. فلم يصفهم القرآن الكريم صراحة بالتحريف كما وصف أسلافهم من اليهود فى كثير آياته... فهل معنى هذا أن النصارى لم يحرفوا الإنجيل كما حرفت اليهود التوراة؟.

الجواب على ذلك: أنهم حرفوه أكبر تحريف وأفحشه، حيث أزالوه من الوجود رأسا وأضاعوه كله واستعاضوا عنه بما كتبوا لأنفسهم من الأناجيل ورسائل مشتملة على قليل من الحق الذى جاء به المسيح وكثير من أباطيلهم وأكاذيبهم.

على أن هذه الأناجيل والرسائل المعتمدة لدى النصارى قد حرفت هى الأخرى أو بعبارة أدق قد حرف ما فيها من حق كما حرفت كتب اليهود. وإذا كان حذف كلمة واحدة من كتاب سماوى يعتبر تجديفا على الله وتحريفا للكتاب السماوى فما بالنا بحذفه كله وإضاعة أصله من الوجود!! وإنما لم يصف القرآن النصارى بالتحريف صراحة لأنهم لا ينسبون أناجيلهم هذه إلى الله ورسوله وإنما إلى من ألفها.

وأما اليهود فإنهم ينسبون كتبهم إلى الله ورسله ويدعون أنها منزلة من السماء.

ومن هنا عنى القرآن بإثبات تحريفهم لهذه الكتب وتبديلهم لها وبيان أنهم كتبوها بأنفسهم ونسبوها إليه زورا وبهتانا ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ

---

(١) يقول صاحب تفسير المنار فى معنى هذه الآية (فنسوا حظا مما ذكروا به) أى تركوا نصيبا وافيا مما ذكروا به على لسان المسيح كما فعل الذين من قبلهم (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) الفاء للسببية أى فكان نسيان حظ عظيم من كتابهم سببا لوقوعهم فى الأهواء والتفرق فى الدين الموجب بمقتضى سنتنا فى البشر للعداوة البغضاء. والإغراء: التحريش وإسناده إلى الله تعالى مع كونه من أعمالهم الاختيارية سببا ومسببا لأنه من مقتضى سنته فى خلقه فهذا جزاؤهم فى الدنيا (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) عندما يحاسبهم فى الآخرة ينبئهم بحقيقة ضلالهم ويجازيهم عليه بعد ذلك ليعلموا أنه حكم عدل لا يظلم مثقال ذرة جـ ٦ ص ٢٣٧.

﴿يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة البقرة الآية: ٧٩).

فعدم وصف النصارى بالتحريف الصريح ليس راجعا لسلامة الإنجيل منه، بل لأنهم أضاعوه رأسا ووضعوا لأنفسهم غيره ونسبوه إلى من ألفه فبعدت صلة هذه الأناجيل بالوحى السماوى لاعترافهم بأنها من وضعهم بخلاف اليهود الذين يزعمون أن ما بأيديهم منزل من عند الله[١].

فالنصارى نسبوا الأناجيل إلى أنفسهم وهذا يدل على أنها ليست من عند الله.

يقول ابن حزم (لسنا نحتاج إلى تكلف برهان فى أن الأناجيل وسائر كتب النصارى ليست من عند الله عز وجل ولا من عند المسيح عليه السلام كما احتجنا إلى ذلك فى التوراة والكتب المنسوبة إلى الأنبياء عليهم السلام التى عند اليهود، لأن جمهور اليهود يزعمون أن التوراة التى بأيديهم منزلة من عند الله عز وجل على موسى فاحتجنا إلى إقامة البرهان على بطلان دعواهم فى ذلك.

وأما النصارى فقد كفونا هذه المؤنة كلها، لأنهم لا يدعون أن الأناجيل منزلة من عند الله على المسيح، ولا أن المسيح أتاهم بها، بل كلهم أولهم وآخرهم لا يختلفون من أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون فى أزمان مختلفة)[٢].

وعلى ذلك فالأناجيل المعتمدة بين النصارى ليست من عند الله، وليست هى عين الإنجيل الذى أنزل على عيسى عليه السلام، بل هى من تأليفهم ووضعهم حسب أهوائهم وشهواتهم.

وإذن فلا سند لهم من نص سماوى يؤيد دعواهم فى نسبة الألوهية إلى المسيح، ذلك أن هذه الأناجيل ليست من عند الله وما دام الأمر كذلك فلا حجة فى الاستدلال بها.

٢ـ إثبات القرآن الكريم لتحريف النصارى أقوال المسيح

ولقد قطع القرآن الكريم على النصارى حجة الاستشهاد بأقوال المسيح حتى لا يقول قائلهم: إنه وإن كان الإنجيل الذى أنزل على عيسى قد ضاع فإننا نقول بأقوال المسيح وتعاليمه.

---

(١) راجع القرآن وعقائد أهل الكتاب ص ٥١.

(٢) الفصل فى الملل والنحل جـ٢ ص ٢.

ذلك أن القرآن الكريم يبين خطأ هذا القول، فالمسيح عيسى بن مريم رسول الله [١] ما دعا إلا إلى توحيد الله عز وجل وعبادة الله وحده لا شريك له.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (سورة المائدة الآية: ٧٢)

ولقد تبرأ المسيح من أقوالهم واعتقاداتهم فقال ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (سورة المائدة الآية: ١١٧)

فالمسيح برئ مما نسب إليه، فهو لم يقل إنه الله أو ابن الله.

وإذن فلا سند لهم من نص سماوى ولا من قول للمسيح يؤيد اعتقادهم بألوهية المسيح وعلى ذلك فإنهم بهذه العقيدة لا يقولون بتعاليم المسيح ولا بأقواله.

إبطال القرآن الكريم لاعتقاد النصارى بأن المسيح هو الله

إن النصارى يعتقدون ـ كما بينا فى الباب السابق ـ أن المسيح هو الله الابن[٢].

ولقد أبطل القرآن الكريم اعتقاد النصارى بكون المسيح هو الله

وأبطل اعتقادهم أيضا بأن المسيح هو ابن الله.

أما الاعتقاد بأن المسيح هو الله، فإنه يبطله تلك الآيات الدالة على وحدانية الله سبحانه وتعالى وتنزيه من الشريك يقول سبحانه ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٦٣).

ولقد شهد الله والملائكة وأولوا العلم بهذه الوحدانية.

يقول سبحانه ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ١٨).

بل إن الكائنات تقر له بالعبودية والخضوع له وحده لا شريك له.

﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (سورة مريم الآيات: ٩٣ ـ ٩٥).

---

(١) راجع ما قلناه فى بداية هذا الفصل ص ٦٨٧ وما بعدها.

(٢) وهذا الاعتقاد كما ترى متناقض، فكيف يكون المسيح هو الله ـ وفى الوقت ذاته هو ابن الله؟

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (سورة الأنعام الآيات: ١٨ ـ ١٩).

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الحديد الآية : ٣).

فالأول هو الفرد السابق. يقول الفخر الرازى (لما وصف الله تعالى نفسه بكونه أولا وجب أن يكون فردا سابقا فوجب أن لا يكون له شريك)[١].

والله سبحانه وتعالى هو وحده العالم بالغيب قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (سورة الأنعام الآية: ٥٩) فالنص يقتضى أن لا يكون أحد سواه عالما بالغيب ولو كان له شريك لكان عالما بالغيب وهو خلاف النص.

والله سبحانه وتعالى صرح بكلمة ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فى سبعة وثلاثين موضعا من كتابه، وصرح بالوحدانية فى مواضع كثيرة نحو قوله ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٦٣) وقوله[٢] ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (سورة الإخلاص الآية: ١). وكل ذلك دال على التوحيد وإبطال الشرك.

ويقول سبحانه ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (سورة القصص الآية: ٨٨) حكم بهلاك كل ما سواه ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديما ومن لا يكون قديما لا يكون إلها.

والله سبحانه هو وحده الذى يضر وينفع. يقول سبحانه ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ (سورة يونس الآية : ١٠٧).

وقال فى آية أخرى ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ (سورة الزمر الآية: ٣٨).

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢٢ ص ١٥٤.

(٢) نفس المرجع، نفس الصفحة.

ويقول سبحانه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ (سورة الأنعام الآية: ٤٦) وهذا الحصر يدل على نفى الشريك.

والله سبحانه وتعالى هو المتصف بأنه خالق كل شئ ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (سورة الزمر الآية : ٦٢) فلو وجد الشريك لم يكن خالقا فلم يكن فيه فائدة.

وآيات القرآن الكريم الدالة على توحيد الله عز وجل وعلى إبطال الاعتقاد بالشرك بالله ـ غير هذه الآيات ـ كثيرة ولا يتسع المجال لذكرها.

لذلك سنقتصر هنا فى هذا البحث على بعض الأدلة التى أوردها القرآن الكريم والخاصة بمناقشة النصارى فى اعتقادهم بأن المسيح هو الله.

أولا: بعد أن بينا أن القرآن الكريم قطع على النصارى حجة الاستشهاد بالنص السماوى ـ سواء كان هذا النص هو الإنجيل أو قول المسيح ـ نورد هنا مناقشة القرآن الكريم لهؤلاء مناقشة عقلية.

يبين القرآن الكريم أن المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الهلاك أو عن والدته كما أنه لا يستطيع غيره أن يدفعه عنه إذا أراد الله تعالى إنزاله به فكيف يكون هو الله الذى بيده ملكوت كل شئ؟

هل يستطيع أن يدفع عن نفسه الهلاك إن أراد الله أن يهلكه؟ إذا لم يستطع أن يدفع هذا الهلاك فكيف يكون هو الله؟

يقول سبحانه ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة المائدة الآية: ١٧).

يقول الإمام الرازى (هذه جملة شرطية قدم فيها الجزاء على الشرط، والتقدير: إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا فمن الذى يقدر على أن يدفعه عن مراده ومقدوره.

وقوله (فمن يملك من الله شيئا) أى فمن يملك من أفعال الله شيئا، والملك هو القدرة. يعنى فمن الذى يقدر على دفع شئ من أفعال الله تعالى ومنع شئ من مراده. وقوله (ومن فى الأرض) يعنى أن عيسى مشاكل لمن فى الأرض فى الصورة والخلقة. والجسمية والتركيب وتغيير الصفات والأحوال.

فلما سلمتم كونه تعالى خالقا للكل مدبرًا للكل وجب أن يكون أيضا خالقا لعيسى عليه السلام [١]. ويقول صاحب تفسير المنار فى معنى الآية (قل يا أيها الرسول لهؤلاء النصارى المتجرئين على مقام الألوهية بهذا الزعم الباطل !! من يملك من أمر الله وإرادته شيئا يدفع به الهلاك والإعدام عن المسيح وأمه وعن سائر أهل الأرض إن أراد الله أن يهلكهم ويبيدهم؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتجهيل، أى أن المسيح وأمه من المخلوقات التى هى قابلة لطروء الهلاك والفناء عليها كسائر أهل الأرض، فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعا لا يوجد أحد يستطيع أن يرد إرادته لأنه هو المالك لأمر الوجود كله، ولا يملك أحد من أمره شيئا يستطيع به أن يصرفه عن عمل يريده أو يحمله على أمر لا يريده أو يستقل بعمله دونه.

وقوله تعالى (فمن يملك من الله شيئا) نفى أن يملك أحد بعض أمره تعالى فضلا عن ملك أمره كله، فصار المعنى أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يرد أمره أو يحوله عن إرادته بوجه ما ولو بالدعاء والشفاعة، إذ لا يستطيع أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه لمن ارتضاه، فالأمر فى ذلك كله له وحده عز وجل ويدخل فى عموم ذلك المسيح نفسه وغيره من الأنبياء وكذا الملائكة عليهم السلام.

فإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الهلاك أو عن والدته كما أنه لا يستطيع غيره أن يدفعه عنه إذا أراد الله تعالى إنزاله به فكيف يكون هو الله الذى بيده ملكوت كل شئ [٢].

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١١ ص ١٩٦.

(٢) تفسير المنار جـ٦ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

ثانيا: يذكر القرآن الكريم أن المسيح متصف بأوصاف بشرية لا يمكن ان يتصف بها الإله. يقول سبحانه ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة المائدة الآية: ٧٥). أى ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، وما أمه أيضا إلا صديقة كبعض النساء المصدقات للأنبياء المؤمنات بهم، فما منزلتهما إلا منزلة بشرين أحدهما نبى، والآخر صحابى، فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتموها بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم مع أنه لا تمييز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه.

ثم صرح ببعدهما عما نسب إليهما فى قوله (كانا يأكلان الطعام) لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم[١]. وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام.

(انظر كيف نبين لهم الآيات) أى الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم (ثم انظر أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله.

فان قلت: ما معنى التراخى فى قوله (ثم انظر).

قلنا: معناه ما بين العجبين، يعنى أنه بين لهم الآيات بيانا عجيبا وأن إعراضهم عنها أعجب منه)[٢].

فقوله سبحانه (كانا يأكلان الطعام) تنبيه على سمة الحدوث، لأن من احتاج إلى الطعام وما يتبعه من العوارض لم يكن إلا جسما مركبا، وهذا يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام[٣].

ولقد زاد الإمام الرازى على ذلك معان أخرى فقال:

---

(١) جاء فى المعجم الوسيط. (قرم الفحل قرما: صار قَرْما، وقرم اللحم وإليه: اشتدت شهوته إليه. فهو قرم) جـ ٢ ص ٧٣٠.

(٢) الكشاف جـ١ ص ٦٣٥.

(٣) أبو حيان الأندلسى: البحر المحيط جـ٣ ص ٥٣٧.

اعلم أن المقصود من ذلك الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيانه من وجوه:-

الأول: أن كل من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن ،وكل من كان كذلك كان مخلوقا لا إلها.

الثانى: أنهما كانا محتاجين، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذى يكون غنيا عن جميع الأشياء. فكيف يعقل أن يكون إلها؟

الثالث: قال بعضهم عن قوله (كانا يأكلان الطعام) كناية عن الحدوث، لأن من أكل الطعام فإنه لابد وأن يحدث، وهذا عندى[١] ضعيف من وجوه.

الأول: أنه ليس كل من أكل أحدث، فإن أهله الجنة يأكلون ولا يحدثون.

والثانى: أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس بإله، فأى حاجة بنا إلى جعله كناية عن شئ آخر.

الثالث: أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد، فلو كان إلها لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه كيف يعقل أن يكون إلها للعالمين؟

وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج إلى دليل)[٢].

فكون المسيح له أم يدل على أنه مخلوق، ثم إن المسيح وأمه كانا محتاجين إلى الطعام والشراب، والمحتاج إلى غيره لا يمكن أن يكون إلها؛ إذ من لوازم الإله أن يكون غنيا[٣].

وأما حقيقتهما - أى المسيح وأمه - الشخصية والنوعية فهى مساوية لحقيقة غيرهما من أفراد نوعهما وجنسهما، بدليل أنهما كانا يأكلان الطعام، وكل من يأكل الطعام فهو مفتقر إلى ما يقيم بنيته ويمد حياته، لئلا ينحل بدنه وتضعف قواه فيهلك - دع ما يستلزمه أكل الطعام من الحاجة إلى دفع الفضلات - وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن

---

(١) الكلام لازال للرازى.

(٢) مفاتيح الغيب جـ١٢ ص ٦٥.

(٣) ابن القيم: مختصر الصواعق المرسلة على الجهيمة والمعطلة ص٧٩.

مساو لسائر الممكنات المخلوقة فى حاجتها إلى غيرها، فلا يمكن أن يكون ربا خالقا ولاينبغى أن يكون ربا معبودا وإن من سفه الإنسان لنفسه واحتقاره لجنسه أن يرفع بعض المخلوقات المساوية له فى ماهيته ومشخصاته بمزية عرضية لها، فيجعل نفسه لها عبدا ويسمى ما يفتتن بخصوصيته منه إلاها أو ربا.

(انظر كيف نبين لهم الآيات) انظر أيها الرسول أو أيها السامع نظر عقل وفكر كيف نبين لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين على بطلان دعواهم فى المسيح.

ثم انظر ذلك كيف يصرفون ـ بالفتح ـ عن استبانة الحق بها والانتقال من مقدماتها إلى نتائجها كأن عقولهم قد فقدت بالتقليد وظيفتها)[1].

فالمسيح إنسان متصف بأوصاف الإنسان حيث إنه وأمه كانا يحتاجان إلى الطعام والاحتياج دليل الحدوث لأن الله غنى عن العالمين.

والخلاصة: أنه قد تبين لنا من الأدلة السابقة أن المسيح إنسان وليس إلها، لأنه لا يستطيع أن يرد عن نفسه الهلاك أى عاجز عن أن يدفع عن نفسه الهلاك، والإله لا يوصف بالعجز.

ثم إن المسيح كان يحتاج إلى الطعام، والإله لا يوصف بالاحتياج.

وهذه أدلة يجب التسليم بها، لأنها أدلة تستقيم مع صحيح العقول والفكر المستقيم الذى لا التواء فيه من تقليد أعمى أو تعصب بدون علم.

ثالثا: إن القرآن الكريم يبين أنه لو كان فى الوجود آلهة غير الله لفسدت السموات والأرض وما فيهن ولفسد الوجود كله.

يقول سبحانه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٢٢).

قال أهل النحو (إلا) ههنا بمعنى غير أى لو كان يتولاهما ويدبر أمورهما شئ غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا، ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لأنا لو حملناه على الاستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا، وهذا يوجب

(١) تفسر المنار جـ٦ ص ٤٠٣، ٤٠٤.

بطريق المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة معهم الله أن لا يحصل الفساد وذلك باطل لأنه لو كان فيهما آلهة سواء لم يكن الله معهم أو كان فالفساد لازم.

ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت أن المراد ما ذكرنا)[١].

إنه سبحانه لما أقام الأدلة القاطعة على التوحيد قال بعده (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أى هو منزه لأجل هذه الأدلة عن وصفهم بأن معه إلها"[٢]. فلو كان فى السماء والأرض آلهة غير الله تقول بإلهيتها عبدة الأوثان والنصارى للزم فساد العالم، لأنه هُو وحده سبحانه القادر الخالق البارئ المصور النافع الضار الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم وهو سبحانه وحده القادر على تدبير أمور العالم لأنه الخالق. ويدل على ذلك أيضا قول الله تعالى ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (سورة المؤمنون الآية: ٩١).

ينزه الله تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك والتصرف والعبادة فقال تعالى ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ..... ﴾ أى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض فى غاية الكمال ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (سورة الملك الآية: ٣).

ثم لكان كل منهم يطالب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض، والمتكلمون ذكروا هذا[٣] المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو: أنه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزا، ويمتنع اجتماع مراديها للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكنا لأنه لا يليق

(١) مفاتيح الغيب جـ٢٢ ص ١٥٠.
(٢) المرجع السابق جـ٢٢ ص ١٥٤.
(٣) راجع مفاتيح الغيب جـ٢٢ ص ١٥١ ـ ١٥٤.

بصفة الواجب أن يكون مقهورا، ولهذا قال تعالى (ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) أى عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علوا كبيرا)[١].

فلو كان مع الله آلهة أخرى لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض أى لانفرد على ذلك كل واحد من الآلهة بخلقه الذى خلق واستبد به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزا عن ملك الآخر، ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون، وحيث لم تروا أثر التمايز فى الممالك والتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شئ.

سبحان الله عما يصفون من إثبات الولد والشريك[٢].

رابعا: بعد أن تبين بطلان الاعتقاد بالشرك بالله عامة ـ والاعتقاد بأن المسيح هو الله خاصة ـ بالأدلة العقلية والنقلية،

يصرح القرآن الكريم بأنهم ـ بعد هذا ـ لا دليل معهم على هذا الإفك وهذا الافتراء، ويتحدى القرآن الكريم هؤلاء ـ على سبيل الإنكار والتوبيخ ـ بأن يأتوا بالدليل والبرهان على كذبهم وافتراءهم إذا كان معهم.

يقول سبحانه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنبياء الآية ٢٤).

يقول الزمخشرى فى معنى هذه الآية: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم أى وصفتم الله تعالى بأن له شريكا فهاتوا برهانكم على ذلك.

إما من جهة العقل وإما من جهة الوحى فإنكم لا تجدون كتابا من كتب الأنبياء الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه والإشراك به منهى عنه متوعد عليه.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٥٤.

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢٣ ص ١١٨.

أى ﴿ هَٰذَا ﴾ الوحى الوارد فى معنى توحيد الله ونفى الشركاء عنه كما ورد على فقد ورد على جميع الأنبياء فهو ﴿ ذِكْرُ ﴾ أى عظة للذين معى ـ يعنى أمته ـ وذكر للذين قبلى يريد أمم الأنبياء عليهم السلام)[١].

وذلك لأن توحيد الله هو الوحى الذى نزل على جميع الأنبياء والمرسلين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٢٥).

يقول الرازى (إنه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبين أنهم لا دليل لهم البتة عليه لا من جهة العقل ولا من جهة السمع ذكر بعده أن وقوعهم فى هذا المذهب الباطل ليس لأجل دليل ساقهم إليه بل ذلك لأن عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم ثم ترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه فقال سبحانه (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون)[٢].

فلا دليل من العقل والنقل مع هؤلاء النصارى فى اعتقادهم أن المسيح هو الله ـ أى الأقنوم الثانى من الأقانيم الثلاثة لأن توحيد الله هو دعوة الأنبياء والرسل.

فلا دليل معهم يؤيدهم ولا سند لهم فى دعواهم.

يقول الله سبحانه: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون الآيات ١١٦ ـ ١١٧).

إن الله سبحانه وتعالى لما بين أنه هو الملك الحق لا إله إلا هو أتبعه بأن من ادعى إلها آخر فقد ادعى باطلا من حيث لا برهان لهم فيه ونبه بذلك:

أن كل ما لا برهان فيه لا يجوز إثباته.

ثم ذكر أن من قال بذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله (فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون)[٣].

---

(١) الكشاف جـ٢ ص ٥٦٩.

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢٢ ص ١٥٨.

(٣) المرجع السابق جـ٢٣ ص ١٢٩.

فلا دليل معهم لا من جهة ولا من جهة النقل يؤيد افتراءهم، ومن لا برهان له لا يجوز إثباته لذلك يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ (سورة الحج الآية: ٧١) ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٣٣).

خامسا: الحكم القرآنى على اعتقاد النصارى بأن المسيح هو الله.

لقد بين القرآن الكريم أن هؤلاء القوم بتأليههم للمسيح قد كفروا بالله عز وجل.

يقول سبحانه ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة المائدة الآية: ١٧).

ويقول سبحانه ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (سورة المائدة الآية: ٧٢).

أكد تعالى بالقسم كفر قائلى هذا القول من النصارى إذْ غلوا فى إطراء نبيهم المسيح ابن مريم غلوّاً ضادوا به غلوّ اليهود فى الكفر وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتانا عظيما ثم صار هو العقيدة الشائعة فيهم)[1].

فالنصارى باعتقادهم أن المسيح هو الله كافرون بالله عز وجل.

ولقد صرح القرآن الكريم بكفرهم ـ مع أنه كان يعلم من قولهم ـ دفعا لما قد يتوهم أنهم ينسبون أنفسهم إلى المسيح، وأن نسبتهم إلى المسيح صحيحة وأنهم يقولون بأقواله ويدعون بدعوته، أو دفعا لتوهم أن نسبتهم إلى المسيح ترفع عنهم أى قول. صرح القرآن الكريم بكفرهم ليبين أن نسبتهم إلى المسيح غير صحيحة وأنهم افتروا واجترؤا على الله باعتقادهم أن المسيح هو الله. وهم بهذا الافتراء استحقوا الحكم عليهم بأنهم كافرون.

---

(١) تفسير المنار جـ٦ صـ٣٩٩.

إبطال القرآن الكريم لاعتقاد النصارى بأن المسيح ابن الله

إن المسيح لم يقل عن نفسه إنه إله أو ابن إله وهذا يعنى أن النصارى فى اعتقادهم أن المسيح ابن الله ليس لهم من نص سماوى أو دليل نقلى يستدلون به على اعتقادهم.

ولقد أبطل القرآن الكريم هذا الاعتقاد أيضا بالأدلة العقلية نذكر بعضها فيما يلى:-

أولا: أنه سبحانه وتعالى لا ينبغى له الولد، لأن ولادة هذا الولد المزعوم لله - عز وجل - إن كانت عن طريق التقائه سبحانه بزوج له فهو غير صحيح، لأنه تعالى منزه عن ذلك.

يقول سبحانه ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الأنعام: (١٠١).

والمعنى ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق - كما قال مجاهد والسدى - ومنه سميت البدعة بدعة، لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أى كيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبه.

أى والولد إنما يكون متوالدا بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شئ من خلقه، لأنه خالق كل شئ فلا صاحبة له ولا ولد - كما قال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ (سورة مريم الآيات: ٨٨ - ٨٩) ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فبين تعالى أنه الذى خلق كل شئ وأنه بكل شئ عليم فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذى لا نظير له فأنى يكون له ولد تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا؟[1] وفى هذه الآية إبطال الولد من ثلاثة وجوه.

أحدها: أنه مبدع السموات والأرض وهى أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة، لأن الولادة من صفات الأجسام ومخترع الأجسام لا يكون جسما حتى يكون والدا.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ١٦٠.

الثانى: أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد وهو متعال عن مجانس فلم يصح أن تكون له صاحبة فلم تصح الولادة.

الثالث: أنه ما من شئ إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شئ والولد إنما يطلبه المحتاج"[١].

فالله سبحانه وتعالى منزه عن الولد لأنه سبحانه مبدع السموات والأرض ولأنه منزه عن الصاحبة ولأنه سبحانه وتعالى خالق كل شئ وهو بكل شئ عليم.

ويقول سبحانه ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ (سورة الجن الآيات: ١ ـ ٣) يأمر الله تعالى رسوله بأن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له ونفوا عن أنفسهم الشرك فقالوا آمنا به ولن نشرك بربنا أحدا، ونزهوا ربهم عن الصاحبة والولد فقالوا ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾.

يقول الفخر الرازى (وفى "الجد" قولان) :-

الأول: الجد فى اللغة العظمة يقال جد فلان أى عظم.

ومنه الحديث (كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جد فينا [٢])أى جد قدره وعظم، لأن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها والولد للتكثر به والاستئناس وهذه من سمات الحدوث وهو سبحانه منزه عن كل نقص.

القول الثانى: الجد الغنى، ومنه الحديث (لا ينفع ذا الجد منك الجد) [٣].

قال أبو عبيدة: أى لا ينفع ذا الغنى منك غناه.

وكذلك الحديث الآخر (قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء وإذا أصحاب الجد محبوسون) [٤]. يعنى أصحاب الغنى فى الدنيا.

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٤١.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١١٧٦٩).

(٣) أخرجه البخارى فى الصحيح/كتاب: الأذان/باب: الذكر بعد الصلاة/ وكتاب: القدر/باب: لا مانع لما أعطيت/ وكتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة/باب: ما يكره من كثرة السؤال، ومسلم/كتاب: الصلاة (٧٢٥، ٧٣٦، ٧٣٧) والترمذى/كتاب: الصلاة (٢٧٥) .. وغيرهم.

(٤) أخرجه البخارى/كتاب: النكاح/ باب: الجنة عامة من دخلها المساكين، والنار عامة من دخلها النساء، مسلم/كتاب: الرقاق/باب/ أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، أحمد (٢٠٧٨٣).

فيكون المعنى وأنه تعالى غنى عن الاحتياج إلى الصاحبة والاستئناس بالولد.

وهناك قول ثالث[١]: وهو أن جد الإنسان أصله الذى منه وجوده فجعل الجد مجازا عن الأصل، فقوله تعالى (جد ربنا) معناه تعالى أصل ربنا وأصل حقيقته المخصوصة التى لنفس تلك الحقيقة من حيث إنها هى تكون واجبة الوجود فيصير المعنى: -

أن حقيقته المخصوصة متعالية من جميع جهات التعلق بالغير، لأن الواجب لذاته يجب أن يكون واجب الوجود من جميع جهاته، وما كان كذلك استحال أن يكون له صاحبة وولد.

وقرئ "جدا ربنا" بالنصب على التمييز "وجد ربنا" بالكسر أى صدق ربوبيته وحق إلاهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد، وكأن هؤلاء الجن لما سمعوا لقرآن تنبهوا لفساد ما عليه كفرة الجن فرجعوا أولا عن الشرك وثانيا عن دين النصارى)[٢].

فالله سبحانه وتعالى منزه عن الحاجة للصاحبة والولد وذلك لعظمته وقدرته وجلاله ولأنه سبحانه غنى عن العالمين.

ونخلص من هذا إلى أن الله تعالى لا ينبغى أن يكون له ولد لأنه إن كان هذا الولد عن طريق الالتقاء بزوج فهو باطل لأنه سبحانه منزه عن الصاحبة.

وكيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة؟!!!

ثانيا: أنه سبحانه لا ينبغى له الولد، لأن ولادة هذا الولد المزعوم - لله عز وجل إن كانت عن طريق الخلق والإبداع فهو سبحانه مبدع السموات والأرض وخالق كل شئ فلماذا التخصص بولد واحد دون سائر المخلوقات[٣].

فهو سبحانه خالق كل شئ ومالكه، وكل شئ فقير إليه خاضع ذليل لديه، وجميع سكان السموات والأرض عبيده هو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه.

---

(١) الكلام لازال للفخر الرازى.

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٣٠ ص١٥٥.

(٣) راجع العقائد المسيحية بين القرآن والعقل ص ١٩٣.

يقول الله تعالى ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (سورة البقرة الآيات ١١٦ ـ ١١٧).

اشتملت هاتان الآيتان على الرد على النصارى وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب ممن جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم فى دعواهم وقولهم إن لله ولدا فقال تعالى ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى ليس الأمر كما افتروا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له.

فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متوالدا من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك فى عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد[1].

﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أى منقادون لا يمتنع شئ منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ومن كان بهذه الصفة لم يجانس ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد.

والتنوين فى ﴿ كُلٌّ ﴾ عوض عن المضاف إليه أى كل ما فى السموات والأرض، ويجوز أن يراد كل من جعلوه لله ولدا له قانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم.

فإن قلت: كيف جاء بـ ﴿ مَا ﴾ التى لغير أولى العلم مع قوله قانتون؟

قلنا: هو كقوله سبحان ما سخركن لنا، وكأنه جاء بـ ﴿ مَا ﴾ دون (من) تحقيرا لهم وتصغيرا لشأنهم)[2].

فالآية ناطقة بأن ما فى السموات والأرض ملك لله تعالى ومسخر لإرادته ومشيئته لا فرق بين العاقل وغيره، فقد حكم على الجميع بالملكية وبالقنوت الذى يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والملك.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٦٠ .

(٢) الكشاف جـ١ ص ٣٠٧.

ثم أكد سبحانه الحكمين السابقين وهما: تنزيهه عن اتخاذ الولد وملكيته لما فى السموات وما فى الأرض وخضوع الكل له بقوله تعالى:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ومعناه أنه سبحانه هو المخترع للسموات والأرض لا على مثال سابق لأن الإبداع كما قالوا هو إيجاد الشئ على غير مثال، وإذا كان هو المبدع للسموات والأرض والموجد لجميع ما فيها: فكيف يصح أن ينسب إليه شئ منهما على أنه شبيه له؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا[1].

وفى هذا المعنى وردت آيات أخرى كثيرة منها. قول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (سورة النساء الآية: ١٧١).

وقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (سورة الفرقان الآية: ٢).

وقوله تعالى ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (سورة الأنعام الآيات: ١٠١ - ١٠٣).

فالله سبحانه هو الموجد والخالق لجميع المخلوقات فلا يمكن أن ينسب إليه مخلوق على أنه ولده دون الأخرى - إذا كانت ولادة هذا الولد عن طريق الخلق والإبداع. فالله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض ومبدعهما فلماذا التخصص بولد واحد دون سائر المخلوقات؟ وهذا باطل فالمخلوقات كلها خاضعة قانتة لله سبحانه وتعالى وهو سبحانه مالك كل شئ وخالق كل شئ لا إله إلا هو رب كل شئ ومليكه.

---

(١) د/هاشم جوده: العقائد المسيحية بين القرآن والعقل ص ١٨٨، ١٨٩.

على أن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجا للولد لأنه سبحانه غنى عن العالمين. يقول سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (سورة فاطر الآية: ١٥).

ويقول سبحانه ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة يونس الآية: ٦٨) والمعنى يقول الله تعالى منكرا على من ادعى أن له ولدا ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ أى تقدس عن ذلك هو الغنى عن كل ما سواه وكل شئ فقير إليه ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أى فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شئ مملوك له عبد له ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ أى ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان.

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد[١].

يقول الزمخشرى: قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ علة لنفى الولد لأن ما يطلب به الولد من يلد، وما يطلبه له السبب فى كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفيا ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فهو مستغن بملكه لهم من اتخاذ أحد منهم ولدا ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ أى ما عندكم من حجة بهذا القول[٢].

فالله سبحانه وتعالى لا ينبغى له الولد لأنه هو المالك المتصرف لما فى السموات وما فى الأرض فهو سبحانه مستغن بملكه عن اتخاذ الولد يقول سبحانه ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (سورة الحج الآية: ٦٤).

وقوله ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (سورة لقمان الآية: ٢٦).

ثالثا: أنه سبحانه لا ينبغى له الولد، لأن ولادة هذا الولد المزعوم إن كانت عن طريق التولد والصدور فهو غير صحيح أيضا، لأنه سبحانه وتعالى لم يلد أى لم يسبق له أن ولد مولودا لا عن طريق التزاوج ولا عن طريق التولد والصدور[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢٤.

(٢) الكشاف جـ٢ صـ ٢٤٤.

(٣) العقائد المسيحية بين القرآن والعقل ص ١٩٣.

يقول سبحانه ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (سورة الإخلاص الآيات: ١ ـ ٤).

قال عكرمة لما قالت اليهود نحن نعبد عزيزا ابن الله، وقالت النصارى نحن نعبد المسيح ابن الله وقال المشركون نحن نعبد الأوثان أنزل الله تعالى على رسوله هذه السورة[١].

والمعنى أنه سبحانه الأحد الذى لا نظير له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ وهو السيد الذى كمل فى علمه وحكمته ورحمته وبلغ جميع صفاته ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ أى لم يوجد منه ولد ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أى ولم يتولد عن شئ قبله.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أى وليس له عدل ولا مكافئ ولا مساو فقطع النظير المدانى والأعلى والمساوى فانتفى أن يكون له ولد[٢].

فالله سبحانه وتعالى منزه عن الشبيه والنظير جل سبحانه عن النظائر وتقدس عن الأشباه والولد.

والخلاصة: أن القرآن الكريم أبطل اعتقاد النصارى بأن المسيح ابن الله بالأدلة العقلية أيضا، ذلك أن المسيح إذا كان ابن الله:

فإما أن يكون ابنا لله عن طريق التقائه سبحانه بزوجة له.

أو عن طريق الخلق والإبداع.

أو عن طريق التولد.

وكلها باطلة لأنه سبحانه وتعالى منزه عن الصاحبة، ولأنه تعالى خالق السموات والأرض وما فيهن ـ وهو سبحانه واحد أحد لم يلد ولم يولد، واحد فى الذات والصفات والأفعال تنزه عن التوالد والتولد.

وكيف يكون له ولد ـ والولد إنما يكون للاحتياج ـ والله سبحانه هو الغنى عن العالمين؟ وكيف يكون له ولد وهو الواحد الأحد الفرد الصمد؟

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٥٧٠

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٥٨١.

رابعا: الحكم القرآنى على الاعتقاد بأن المسيح ابن الله ويتبين ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن آيات التنزيل تبين أن نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى منكر وإثم وإفك عظيم وأن النصارى وغيرهم[١] الذين نسبوا الولد إلى الله ـ قد افتروا إثما عظيما ومنكرا فظيعا وقولا شنيعا ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء الآية: ٤٨).

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (سورة النساء الآية: ١١٦).

وإنه من فظاعة هذا ـ نسبة الولد إلى الله ـ كادت السموات أن تنفطر والجبال أن تنشق والأرض أن تخر هدّا.

يقول سبحانه ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (سورة مريم الآيات: ٨٨ ـ ٩٥).

لقد وصف القرآن الكريم نسبة الولد إلى الله بأنه منكر (لقد جئتم شيئا إدّا) أى شيئا عظيما ومنكرا من القول وزورا[٢].

يروى عن ابن عباس قوله إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين حتى كادت أن تزول منه لعظمة الله[٣].

يقول الزمخشرى: فإن قيل: ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال، ومن أين تؤثر هذه الكلمة فى الجمادات؟

قلت: فيه وجهان أحدهما: أن الله سبحانه وتعالى يقول: كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها

---

(١) ذلك أن الذين أثبتوا الولد لله تعالى ثلاث طوائف: أحدهما كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله، وثانيهما: النصارى حيث قالوا المسيح ابن الله، وثالثهما: اليهود الذين قالوا عزيزا ابن الله.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٥٨١.

(٣) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ١٣٩.

لولا حلمى ووقارى وأنى لا أعجل بالعقوبة كما قال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (سورة فاطر الآية: ٤١).

والثانى: أن يكون استعظاما للكلمة وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لأثرها فى الدين وهدمها لأركانه وقواعده[١].

فنسبة الولد إلى الله من المنكرات الشنيعة والإفك العظيم.

وأن هذا القول كذب صراح وافتراء عظيم على الله وفى مثل هذا يقول سبحانه ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ سورة الصافات الآيات: ١٥١ ، ١٥٢.

الوجه الثانى: الحكم عليهم بأنهم مشركون بالله وأن اعتقادهم بنسبة الولد إلى الله يضاهى قول الكافرين فى إثباتهم الولد لله.

وهذا يعنى أنهم مشركون وعقيدتهم عقيدة وثنية.

يقول سبحانه ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة التوبة الآية: ٣٠).

يقول الرازى فى مناسبة هذه الآية لما قبلها (اعلم أنه تعالى لما حكم فى الآية المتقدمة[٢] بأنهم لا يؤمنون بالله شرح ذلك فى الآية، وذلك بأن نقل عنهم أنهم أثبتوا لله ابنا، ومن جوز ذلك فى حق الإله فهو فى الحقيقة قد أنكر الإله، وأيضا بين تعالى: أنهم بمنزلة المشركين فى الشرك وإن كانت طرق القول بالشرك مختلفة؛ إذ لا فرق بين من يعبد الصنم وبين من يعبد المسيح وغيره لأنه لا معنى للشرك إلا أن يتخذ الإنسان مع الله معبودا، فإذا حصل هذا المعنى فقد حصل الشرك، بل إنا لو تأملنا لعلمنا أن كفر عابد الوثن أخف من كفر النصارى؛ لأن عابد الوثن لا يقول إن هذا الوثن خالق العالم وإله العالم بل يجريه مجرى الشئ الذى يتوسل به إلى طاعة الله.

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٢٥.

(٢) ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ سورة التوبة الآية: ٢٩.

أما النصارى فإنهم يثبتون الحلول والاتحاد وذلك كفر قبيح جدا.

فثبت أنه لا فرق بين هؤلاء الحلولية وبين سائر المشركين وأنهم إنما خصهم بقبول الجزية منهم لأنهم فى الظاهر ألصقوا أنفسهم بموسى وعيسى وادعوا أنهم يعملون بالتوراة والإنجيل فلأجل تعظيم هذين الرسولين المعظمين وتعظيم كتابيهما وتعظيم أسلاف هؤلاء اليهود والنصارى بسبب أنهم كانوا على الدين الحق حكم الله تعالى بقبول الجزية منهم وإلا فالحقيقة لا فرق بينهم وبين المشركين[١].

فهذه الآية الكريمة تبرز أمرين :-

الأمر الأول: أن اعتقاد النصارى بأن المسيح ابن الله قول بدون دليل. فلا دليل عليه يؤيده ولا برهان يسنده، ويستفاد ذلك من قوله تعالى (ذلك قولهم بأفواههم) أى قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى تحته، كالألفاظ المهملة التى هى أجراس ونغم ولا تدل على معان وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر فى القلب. وما لا معنى له مقول بالفم لا غير.

أو أن يراد (بالقول) المذهب، كقولهم قول أبى حنيفة يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل ذلك مذهبهم ودينهم بأفواهم لا بقلوبهم، لأنهم لا حجة معه ولاشبهة حتى يؤثر فى القلوب، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة فى انتفاء الولد[٢].

الأمر الثانى: أنهم بمنزلة المشركين بالله ـ على أن المشركين بالله أخف وطئا منهم لأنهم لا ينسبون أنفسهم إلى رسول وإلى دين يدعون أنه من عند الله، أما النصارى فإنهم ينسبون أنفسهم إلى المسيح ويدعون أنهم يدعون بدعوته بأنه إله متصف بصفات الألوهية وذلك أقبح من اعتقاد المشركين، وإن كان كل منهما مشرك بالله ـ وأن هذه العقيدة عقيدة وثنية إذ أن النصارى يقولون بأقوال المشركين بالله الذين سبقوهم. ويستفاد ذلك من قوله (يضاهئون[٣] قول الذين كفروا من قبل).

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١٦ ص ٣٤.

(٢) الكشاف جـ٢ ص ١٨٥.

(٣) المضاهاة: المشابهة. قال الفراء: يقال ضاهيته ومضاهاة هذا قول أكثر أهل اللغة فى المضاهاة. وقال شمر المضاهاة المتابعة يقال فلان يضاهى فلانا أى يتابعه. راجع مفاتيح الغيب جـ١٦ ص ٣٧.

يقول الرازى فى تفسير هذه الآية وجوه:

الأول: أن المراد أن هذا القول من اليهود والنصارى يضاهى قول المشركين بأن الملائكة بنات الله.

الثانى: أن الضمير للنصارى أى قولهم المسيح ابن الله يضاهى قول اليهود عزيز ابن الله لأنهم أقدم منهم.

الثالث: أن هذا القول من للنصارى يضاهى قول قدمائهم يعنى أنه كفر قديم فهو غير مستحدث[١].

والرأى الأول هو الأوجه، لأن الآية تقول (يضاهئون قول الذين كفروا) أى قولهم يشبه قول الكافرين والمشركين بالله قبل اليهود والنصارى.

لذلك يبين القرآن الكريم أن هؤلاء المشركين بالله ليس لهم دليل أيضا فى نسبة الولد إلى الله، يقول سبحانه عن مشركى العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾[٢] (سورة الكهف الآيتان: ٤، ٥). أى بهذا القول الذى افتروه وائتفكوه (ولا لآبائهم) أى لأسلافهم (كبرت كلمة تخرج من أفواهم) أى ليس لهم مستند سوى قولهم ولا دليل عليهم إلا كذبهم وافترائهم ولهذا قال (إن يقولون إلا كذبا)[٣].

فالمشركون ادعوا أن لله ولدا وهذا الادعاء إفك وكذب.

واليهود والنصارى فى ادعّاهم أن لله ولدا يشبهون قول المشركين بالله قبلهم. لذلك يقول الله تعالى (قاتلهم الله أنى يؤفكون) أى هم أحقاء بأن يقال هذا القول تعجبا من بشاعة قولهم. (أنى يؤفكون) الإفك: الصرف.

يقال أفك الرجل عن الخير أى قلب وصرف، ورجل مأفوك أى مصروف عن الخير.

---

(١) المرجع السابق جـ١٦ ص ٣٧.

(٢) يقول الزمخشرى (ما لهم به من علم) أى بالولد أو باتخاذه، يعنى أن قولهم هذا لم يصدر من علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء وقد استملته آباؤهم من الشيطان وتسويله. فإن قلت: اتخاذ الله ولدا فى نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم؟ قلت: معناه ما لهم به من علم لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وانتفاء العلم بالشئ إما للجهل بالطريق الموصل إليه وإما لأنه فى نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به. أ. هـ "الكشاف" جـ ٢ ص ٤٧٢.

(٣) تفسير ابن كثير ص ٧١.

فقوله تعالى (أنى يؤفكون) معناه كيف يصدرون ويصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ندا.

وهذا التعجب إنما هو راجع إلى الخلق، والله تعالى لا يتعجب من شئ ولكن هذا الخطاب على عادة العرب فى مخاطبتهم والله تعالى عجب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل[١].

أى كيف يصرفون عن اتباع المسيح فى قول الحق ويتبعون المشركين بالله فى الباطل.

❖ ❖ ❖

ونخلص من هذا: إلى أن القرآن الكريم أبطل اعتقاد النصارى بأن المسيح هو الله، وأن المسيح ابن الله، وبين أن هذا الاعتقاد ليس له دليل نقلى ولا عقلى وإنما هو اعتقاد ما أنزل الله به من سلطان ولا يستقيم مع صحيح العقول لذلك فهم كافرون بالله ومشركون وأن عقائدهم عقائد وثنية يرددون أقوال المشركين بالله قبلهم.

وبذلك يبطل اعتقاد النصارى بأن المسيح هو الله الابن.

بقى بعد ذلك أن نبطل الشبهات التى تمسكوا بها فى إثبات الألوهية.

إبطال القرآن الكريم للشبهات التى استدل بها النصارى على ألوهية المسيح.

لقد أبطل القرآن الكريم ما يدعيه النصارى من ألوهية المسيح وأبطل أيضا ما يتمسكون به من شبهات للاستدلال على ألوهيته.

ولقد بينا فى الباب الخاص بعقيدة النصارى أن أهم هذه الشبهات.

١ ـ ولادة المسيح من عذراء.

٢ ـ معجزات المسيح.

ولما كان شبهتهم على ألوهيته هو أنه خلق على غير السنة العامة فى خلق البشر حيث ولد من عذراء من غير نطفة رجل، وأنه أتى أعمالا غريبة لا تصدر عن عامة البشر فقد جاء القرآن الكريم بإبطال كلتا الشبهتين[٢].

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١٦ ص ٣٨.

(٢) تفسير المنار جـ٦ ص ٢٥٨.

أولا: إبطال الاستدلال بولادة المسيح من عذراء على ألوهيته:

١ ـ أما ولادته عليه السلام من عذراء فقد بين القرآن الكريم أنها لا تدل على ألوهيته لأن الله هو المالك للكون كله، الخالق له حسب مشيئته وإرادته، فقد يخلق بعض الأحياء بدون أب وأم، وقد يخلق بعض الأحياء بدون أم، أو بدون أب، ولا يدل شكل الخلق ولا سببه على أن هذا المخلوق إله، لأن الله سبحانه هو الخالق يخلق ما يشاء بقدرته وإرادته، ويميز بعض المخلوقات على بعض بقدرته ومشيئته، ولا يخرج المخلوق بهذه الميزة عن كونه مخلوقا لله.

قال تعالى فى رد هذه الشبهة ـ بعد أن رد القول بألوهية المسيح :ـ

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة المائدة الآية : ١٧).

فى قوله تعالى "يخلق ما يشاء" وجهان :ـ

الأول: يعنى يخلق ما يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو معتاد، وتارة لا من الأب والأم كما فى خلق آدم عليه السلام، وتارة من الأم لا من الأب كما فى حق عيسى.

والثانى: يخلق ما يشاء يعنى أن عيسى إذا قدر صورة الطير من الطين فالله تعالى يخلق فيه اللحمية والحياة والقدرة معجزة لعيسى، وتارة يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص معجزة له ولا اعتراض على الله تعالى فى شئ من أفعاله[1].

والمعنى : أنه سبحانه لما كان له ملك السموات والأرض وما بينهما كان من المعقول أن يكون خلقه للأشياء تابعا لمشيئته، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان ومنها أبو البشر عليه السلام، وقد يخلق بعضها من ذكر فقط أو أنثى فقط، وقد يخلق بعضها بين ذكر وأنثى، ولا يدل

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١١ ص ١٩٦، راجع أيضا: الكشاف جـ ١ صـ ٦٠٢.

شكل الخلق ولا سببه ولا امتياز بعض المخلوقات على بعض ألوهيتها أو حلول الإله الخالق فيها ـ كما زعم النصارى فى عيسى عليه السلام ـ فامتياز الأرض على عطارد أو زحل بوجود الأحياء فيها من البشر وغيرهم لا يعد دليلا على كون الأرض إلها لذلك الكوكب الذى فضلته بهذه المزية، كذلك سنة الله فى خلق المسيح ومزاياه لا تدل على كونه إلها أو ربا لمن لم توجد فيهم هذه المزايا، لأن المزايا فى الخلق كلها بمشيئة الخالق فلا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقا نسبته إلى خالقه كنسبة سائر المخلوقات إليه تعالى.

لذلك يقول الله بعد ذلك (والله على كل شئ قدير) فكل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته، وإنما يعد بعض خلقه غريبا بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى)[١].

٢ ـ أن المشاهد أن عيسى بن مريم حملت به مريم، أى أن الله صوره فى الرحم وخلقه كما يشاء، فعيسى بن مريم مخلوق.... فكيف يكون إلها؟

يقول سبحانه ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٦).

عن سعيد بن جبير: هذا حجاج على من زعم أن عيسى كان ربا.

كأنه نبه بكونه مصورا فى الرحم على أنه عبد كغيره وكان يخفى عليه ما لا يخفى على الله[٢].

يقول ابن كثير فى معنى هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ أى يخلقكم فى الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى وحسن وقبيح وشقى وسعيد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أى هو الذى خلق وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له وله العزة التى لا ترام والحكمة والإحكام.

---

(١) تفسير المنار جـ٦ ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) الكشاف جـ١ ص ٤١١.

وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر، لأن الله صوره فى الرحم وخلقه كما يشاء فكيف يكون إلها كما زعمته النصارى وقد تقلب فى الأحشاء وتنقل من حال إلى حال [١] كما قال تعالى:

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (سورة الزمر الآية: ٦) [٢].

فقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ﴾ رد لشبهتهم فى ولادة عيسى من غير أب، أى أن الولادة من غير أب ليست دليلا على الألوهية فالمخلوق عبد كيفما خلق وإنما الإله هو الخالق الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء!! وعيسى لم يصور أحدا فى رحم أمه ولذلك صرح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالى بالعزة الحكمة ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ولا يخفى ما فى ذكر الأرحام من التعريض بأن عيسى تكون وصور فى الرحم كغيره من الناس [٣].

٣ ـ أن خلق عيسى يشبه خلق آدم من غير أب، فالذى خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء الألوهية أو النبوة فى عيسى لكونه مخلوقا من غير أب فجواز آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل فداعواهم فى عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا.

قال تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٥٩).

يقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية: أى أن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم، وقوله ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم: أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم فكذلك حال عيسى.

---

(١) الظلمات الثلاث: البطن والرحم والمشيمة، وقيل: الصلب والرحم والبطن (راجع الكشاف جـ١ ص ٣٨٨)

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٤٤.

(٣) تفسير المنار جـ٣ ص ١٣٥.

فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو بغير أب ووجد آدم بغير أب وأم؟

قلت: هو مثيله فى أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأن المماثلة مشاركة فى بعض الأوصاف، ولأنه شبه به فى أنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما فى ذلك نظيران، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه.

وعن بعض العلماء: أنه أسر بالروم فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له. قال: فآدم أولى لأنه لا أبوين له[١].

فلو كان عيسى إلها لأنه ولد من غير أب فآدم أولى بالألوهية، لأن ولد بدون أب وأم، وهو باطل، فدعواهم فى عيسى أشد بطلانا.

٤ ـ أن القرآن الكريم قبل أن يذكر قصة ميلاد المسيح من مريم يذكر قصة ولادة يحيى بن زكريا[٢] من أبوين قد انقطع كل أملهما فى الإنجاب لذلك يقول زكريا فيما يحيكه القرآن ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٤٠).

وذلك كمقدمة لولادة المسيح، وللدلالة على أن هذه الولادة لا تدل على ألوهيته وإنما تدل على أن الله سبحانه هو الذى يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء.

فبالنسبة ليحيى عليه السلام، قد انقطعت كل الأسباب العادية لأنجابه، فزكريا قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا وامرأته عاقر ـ ومع ذلك فقد أنجبا برغم عدم توافر الأسباب العادية التى يكون بها الإنجاب لذلك قال الله لزكريا.

﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ أى يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل وهو خلق الولد بين الشيخ الفانى والعجوز العاقر، أو كذلك الله مبتدأ وخبر أى على نحو هذه الصفة الله يفعل و ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ بيان له: أى يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات"[٣].

---

(١) الكشاف جـ١ ص ٤٣٣.

(٢) سورة آل عمران الآيات ٣٨ ـ ٤٧ وسورة مريم الآيات (٢١، ٧).

(٣) الكشاف جـ١ ص ٤٢٨.

إننا لا نقلل من شأن معجزة ولادة عيسى من عذراء ـ ولكننا نقول إن القرآن الكريم حين ذكر ـ والله أعلم ـ ولادة يحيى مقدمة لولادة عيسى وكلاهما على غير المعهود وذلك لتقرير أن ولادة عيسى من عذراء لا تدل على ألوهيته.

ذلك أننا لو نظرنا إلى ولادة يحيى بالمنطوق المادى أى أن التلقيح هو سبب الإنجاب فإننا نقول إنه بهذا المعنى لا يوجد فرق بين الحالتين، فكما أن عيسى ولد من مريم بدون تلقيح مادى. فإن يحيى ولد من أبوين قد انقطع كل أملهما فى الإنجاب فالوالد قد بلغ من الكبر عتيا والأم عاقر.

لذلك قال الملك لزكريا ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (سورة آل عمران الآية : ٤٠). وقال لمريم ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (سورة آل عمران الآية : ٤٧).

وقال الملك لزكريا ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾(سورة مريم الآية: ٩). وقال لمريم ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ (سورة مريم الآية: ٢١).

إننا لا نقلل من شأن كون ولادة عيسى من مريم آية للناس ولكننا نبين أنها قدرة الله سبحانه وتعالى، فإنه سبحانه متى شاء أمرا أوجد له الأسباب ـ كما فى ولادة جميع الناس ـ أو خلقه بدون الأسباب المعروفة ـ كما فى ولادة يحيى وعيسى ـ فإنه سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون بسبب أو بدون سبب.

وعلى هذا فإن ولادة المسيح من عذراء لا تدل على كون إلها لأنه مخلوق بقدرة الله ومشيئته.

الحكمة من ولادة المسيح بدون أب:ـ

بعد ذلك نقول: إذا لم تكن ولادة المسيح من عذراء تدل على ألوهيته فما المعنى الذى تشير إليه؟ إن السبب الذى من أجله ولد عيسى عليه السلام من غير أب إنه لابد أن يكون ذلك لحكمة يعلمها الله جلت قدرته وقد أشار إليها سبحانه فى قوله تعالى ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أى دلالة على قدرة الله سبحانه التى لا تتوقف على مجرد السبب والمسبب بل إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون "ولنجعله آية" تعليل معلله محذوف: أى ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تعليل مضمر: أى لنبين به قدرتنا ولنجعله آية.

والمراد بالآية: العبرة والبرهان على قدرة الله.

وبالرحمة: الشرائع والألطاف[١].

يقول الشيخ أبو زهرة: وإنا نتلمس تلك الآية الدالة فى ولادة عيسى من غير أب فنجد أنه يبدو أمام أنظارنا أمران جليان:-

أحدهما: أن ولادة عيسى من غير أب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه الفاعل المختار المريد، وأنه سبحانه لا يتقيد فى تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التى نرى العالم يسير عليها فى نظامه الذى أبدعه الله، والذى خلقه، فالأسباب الجارية لا تقيد إرادة الله، لأنه خالقها، وهو مبدعها ومريدها، فإن الأشياء لم تصدر عن الله جلت قدرته، كما يصدر الشئ عن علته، والمسبب عن سببه، من غير أن يكون للعلة إرادة فى معلولها، بل من كانت بفعله سبحانه وبإرادته التى لا يقيدها شئ مهما يكن شأنه، وخلق عيسى من غير أب هو بلا ريب إعلان لهذه الإرادة الأزلية بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية، وفى عصر ساده نوع من الفلسفة، أساسها أن خلق الكون كان من مصدره الأول كالعلة عن معلولها.

فكان عيسى آية الله على أنه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية، وأن العالم كان بإرادته، ولم يكن سبحانه بمنزلة العلة من المعلول، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا)[٢].

الأمر الثانى: أن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب إعلان لعالم الروح بين قوم أنكروها، حتى لقد زعموا أن الإنسان جسم لا روح فيه، وأنه ليس إلا تلك الأعضاء والعناصر التى يتكون منها... فلما جاء عيسى من غير أب، وكان إيجاده بروح من خلق الله كما قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٩١).

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٥.

(٢) محاضرات فى النصرانية ص ٢١.

كان ذلك الإيجاد الذى لم يكن العامل فيه سوى ملك من الأرواح نفخ فى جيب مريم، فكان الإنسان من غير بذرة الإنسان وجرثومته، كان ذلك إعلانا لعالم الروح بين قوم أنكروها ولم يعرفوها، فكان هذا قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح، وكان آية معلمة لمن لم يعرف الإنسان إلا أنه جسم لا روح فيه، وهذه آية الله فى عيسى وأمه عليهما السلام"[١].

فولادة المسيح من غير أب تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية، فهو سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

وأنها إعلان لعالم الروح بين اليهود الذين غلبت عليهم النزعات المادية حتى أنكروا الروح.

ثانيا: إبطال الاستدلال بمعجزات المسيح على ألوهيته: ـ

المعجزة لغة: مأخوذة من العجز وهو ضد القدرة

وعرفا: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى الذى هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة.

وقال السعد: المعجزة أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدعى النبوة عند تحدى المنكرين على وجه يعجز المنكرين عن الإتيان بمثله[٢].

فالرسل وهم صفوة الخلق، أيدهم الله تعالى بالمعجزات، حيث أظهرها على أيديهم تصديقا لهم فى دعوى النبوة والرسالة، وفيما بلغوه عن الله تعالى، لأنها نازلة منزلة قوله تعالى (صدق عبدى فيما يبلغ عنى).

والرسل لا ينسبون فعل الخوارق إلى أنفسهم بل إلى قدرة الله سبحانه وتأييده[٣].

ومعجزات المسيح التى ذكرها القرآن تتلخص فى خمسة أمور ذكر القرآن الكريم أربعة منها فى سورة آل عمران.

١ ـ يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فيكون طيرا بإذن الله.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢.

(٢) شرح البيجورى على الجوهرة ص ١٥٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥٣.

٢ ـ إحياؤه عليه السلام الموتى بإذن الله.

٣ ـ إبراؤه عليه السلام الأكمه والأبرص.

٤ ـ إخباره عن بعض الغيبيات.

والخامسة فى سورة المائدة: وهى إنزال المائدة ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة المائدة الآيات: ١١٢ ـ ١١٥).

ولقد بين القرآن الكريم أن معجزات المسيح لا تدل على الألوهية، وذلك لأن المسيح ـ شأنه كالأنبياء والرسل ـ لم ينسبها إلى نفسه بل إلى قدرة الله وإذنه.

يقول سبحانه عن المسيح ابن مريم ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٤٩).

ويستبين من هذه الآية: ـ

١ ـ أنه يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فيكون طيرا بإذن الله، أى أن الله سبحانه وتعالى خلق على يديه طيرا من الطين، فالخالق هو الله سبحانه وتعالى ولكن جرى الخلق على يد عيسى ـ عليه السلام ـ وبنفخ من روحه عليه السلام بإذن الله.

٢ ـ إحياؤه الموتى عليه السلام بإذن الله جلت قدرته، والمحيى فى الحقيقة هو الله العلى القدير، ولكن أجرى الإحياء على يد المسيح عليه السلام ليكون ذلك برهان نبوته ودليل رسالته.

٣ ـ إبراؤه عليه السلام الأكمه[١] والأبرص، وهما مرضان تعذر على الطب العثور على دواء لهما والتمكن من أسباب الشفاء منهما، ولكن عيسى بقدرة الله شفاهما فكان ذلك دليلا قائما على رسالته عليه السلام.

٤ ـ إنباؤه عليه السلام بأمور غائبة عن حسه ولم يعاينها، فقد كان ينبئ أصحابه وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم، للدلالة على النبوة والرسالة أيضا[٢].

وهنا نلاحظ أن عيسى عليه السلام فى هذه الآية لم يقل فى معجزتى الإبراء والإخبار بالغيب ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٣]. وعلة ذلك أنهما ليس فيهما كبير غرابة بالنسبة إلى الآخرين فتوهم الألوهية فيهما بعيد فلا يحتاج للتنبيه على نفيه خصوصا وكان فيهم أطباء كثيرون[٤].

وعلى ذلك يكون السر فى ذكر ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فى معجزتى خلق الطير من الطين وإحياء الموتى هو نفى توهم الألوهية فى عيسى عليه السلام، لأن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية، بخلاف إبراء الأكمه والأبرص، وكذلك الأمر بالنسبة لخلق الطير من الطين[٥].

فالمسيح لم ينسب المعجزة إلى نفسه بل نسبها إلى الله حين قال ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.

ومعنى قوله ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أى بتكوين الله تعالى وتخليقه.

وإنما ذكر عيسى هذا القيد إزالة للشبهة وتنبيها على أنى أعمل هذا التصوير، فأما خلق الحياة فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل[٦].

---

(١) ذهب أكثر أهل اللغة: أن الأكمه هو الذى ولد أعمى، وقال الخليل وغيره: هو الذى عمى بعد أن كان بصيرا. وعن مجاهد: هو الذى لا يبصر بالليل. راجع مفاتيح الغيب جـ٨ ص ٦٣.

(٢) محاضرات فى النصرانية ص ٢٣ ، ٢٤.

(٣) ولقد ذكرت (بإذن الله) فى آيات سورة المائدة يقول الله لعيسى وهو يذكره بنعمة عليه ....(وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى).

(٤) الفتوحات الإلهية جـ١ ص ٢٧٤. نقلا عن القرآن وعقائد أهل الكتاب ص ٢٠٨.

(٥) القرآن وعقائد أهل الكتاب ص ٢٠٩.

(٦) مفاتيح الغيب جـ٨ ص ٦٣.

وأعاد سبحانه وتعالى قوله ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ـ تأكيدا لكون ذلك واقعا بقدرة الله تعالى وتخليقه لا بقدرة عيسى وإيجاده[١].

وكرر ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ دفعا لوهم من توهم فيه اللاهوتية[٢].

فالمسيح عليه السلام يبين أن الخالق والمحيى فى الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، حيث لم ينسب لنفسه أى قدرة على فعل هذه المعجزات.

وإنما نسبها إلى الله سبحانه وتعالى وذلك دفعا لتوهم أن هذه المعجزات تدل على ألوهيته.

وكذلك أيضا فإن عيسى نسب نزول المائدة إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فقال عيسى ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (سورة المائدة الآية: ١١٤).

وناداه باسم الذات الجامع لمعنى الألوهية والقدرة والحكمة والرحمة فقال عيسى ﴿ ٱللَّهُمَّ ﴾ معناه يا الله، ثم باسم الرب الدال على معنى الملك والتدبير والتربية والإحسان خاصة فقال ﴿ رَبَّنَا ﴾ أى ياربنا ومالكنا ومتولى أمرنا ومربينا أنزل علينا مائدة سماوية[٣].

فهذه المعجزات لا تدل على ألوهية المسيح وإنما تدل على نبوته ورسالته ولذلك قال عيسى بعد أن حكى المعجزات لقومه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٤٩). أى أنها آية ودليل صدق لكى تؤمنوا بأنى رسول من عند الله.

وقال عيسى بعد أن سأل الله المائدة ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ (سورة المائدة الآية: ١١٤). أى تكون آية وعلامة منك على صحة نبوتى ودعوتى.

ولعل المراد بنص قوله ﴿ مِّنكَ ﴾ مع العلم بأن كل شئ من الله تعالى ولا سيما الآيات النص على أن الآيات إنما تكون من الله وحده[٤].

---

(١) المرجع السابق جـ١٢ ص ١٣٤.
(٢) الكشاف جـ١ ص ٤٣١.
(٣) تفسير المنار جـ٢ ص ٢١١.
(٤) نفس المرجع، نفس الصفحة.

فظهور المعجزات على يد المسيح لا تدل على الألوهية بأى حال من الأحوال.

يقول د/بركات دويدار: إن ظهور المعجزات على يديه لا يدل على أنه هو المؤثر لأنها من فعل الله سبحانه وتعالى، فمعجزة الطير وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .... كل ذلك ليس لعيسى فيها عمل بل الله سبحانه وتعالى هو الذى أجرها على يديه... والذين ألهوا عيسى بسبب هذا الكائن كالذين ألهوا الشمس لما رأوا فيها من فوائد فسجدوا لها، فنبههم الله سبحانه إلى أن الحق هو السجود لخالق الشمس لا الشمس، كذلك هنا فى عيسى، الحق هو عبادة خالقه لا عبادته.

وأما المعجزات فإنها ليست بأعظم من غيرها فإن إحياء العصا لموسى [١] - وهم يعترفون بذلك - أدل على القدرة من إحياء الميت فهل نقول كذلك بأن موسى إله؟!! [٢].

فالمعجزات بقدرة الله وإذنه ومشيئته أجراها سبحانه على يد مدعى النبوة والرسالة للدلالة عليها، والمعجزة ليست خاصة بعيسى وحده حيث أجراها الله على يد جميع الأنبياء والرسل.

الحكمة فى كون معجزات المسيح من هذا النوع: -

يقول العلماء: إن معجزة عيسى من جنس ما برع فيه القوم، ذلك أنهم كانوا على علم بالطب الطبيعى وفلاسفة فى ذلك. فجاءت المعجزة من جنس ما يعرفون ليكون عجزهم حجة عليهم وعلى غيرهم ممن هم دونهم فى معرفة الطب.

يقول ابن كثير فى تفسيره: قال كثير من العلماء بعث الله كل نبى من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند الله العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذى شرع الشريعة.

---

(١) ولقد فصلنا القول فى ذلك فى الباب الثانى.

(٢) د/بركات دويدار: الوحدانية ص ٣٨٦ ط أولى.

فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد؟ أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ وبعث من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد؟

وكذلك محمد ﷺ بعث فى زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا)[١].

فالمعجزة إذا جاءت من جنس ما برع فيه القوم كانت أبلغ فى التحدى والإعجاز. ومعجزة المسيح عليه السلام كانت من جنس ما برع فيه القوم من الطب الطبيعى، وذلك ليكون عجزهم حجة عليهم وعلى غيرهم ممن هم أقل منهم فى معرفة ما برعوا فيه.

ولكن الفيلسوف الفرنسى (رينان) يقرر أن اليهود ما كانوا على علم بالطب الطبيعى فيقول (كانت صناعة الطب فى المشرق فى ذلك الزمان كما هى اليوم، فإن اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التى وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ، وكان قد ظهر قبل ذلك بأربعة قرون ونصف كتاب لأبقراط أبى الطب موضوعه العلة المقدسة يعنى الهستريا وفيه وصف هذه العلة وذكر دواءها إلا أن اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب، وكان فى اليهودية فى ذلك الزمان كثيرون من المجانين وربما كان ذلك ناشئا من شدة الحماسة الدينية)[٢].

فهو يقرر أن اليهود ما كانوا على علم بالطب الطبيعى.

وهذا القول ليس دقيقا ذلك أن التاريخ يذكر أن من الطوائف اليهودية التى عاصرت الميلاد "الآسين" أو "الآسينين" - كما يكتبها رواة الأخبار عنها فى عصر الميلاد.

يقول العقاد: (واسم هذه الطائفة مختلف عليه، ولكن الراجع من الأقوال المتعددة أن الاسم مأخوذ من كلمة (أسى) بمعنى الطبيب أو النطاس فى اللغة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٦٤ ، ٣٦٥.

(٢) نقلا عن محاضرات فى النصرانية ص٢٥.

الآرامية وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية، ومن المعقـول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون إبراء المرضى بالصلوات والأوراد، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير. وقد نشأت هذه الطائفة على الأغلب بالإسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد واقتبست من مدارس الإسكندرية كثيرا من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية كمذهب فيثاغورس[١].

فالآسينيون شيعة دينية يهودية ظهرت فى القرن الثانى قبل الميلاد[٢].

ويظن أن عدد الآسينين فى تلك الفترة قد بلغ حوالى أربعة آلاف، كانت غالبيتهم فى وادى القمران، ويظن أن بعضهم كان فى مصر وسوريا[٣].

ويعلم من هذا : أنه كان هناك عدد كبير من اليهود على علم بالطب الذى درسوه فى الإسكندرية التى كانت مسرحا للأفكار الفلسفية.

وإذا كان قد بلغ عددهم فى القرن الثانى قبل الميلاد أربعة آلاف ـ فلا شك أن عددهم زاد بعد ذلك فى عصر ميلاد المسيح.

مما يصح معه القول بأن القوم كانوا على علم بالطب، وكانت معجزات المسيح من جنس ما برع فيه القوم حتى يكون أبلغ فى التحدى والإعجاز.

ولا مانع من أن نقول أيضا إن معجزات المسيح جاءت فى زمان كان قد ساد بينهم إنكار الروح فى أقوال بعضهم وأفعال جميعهم، فجاء عليه السلام بمعجزة هى فى ذاتها أمر خارق للعادة مصدق لما يأتى به الرسل وهى فى الوقت ذاته إعلان صادق للروح وبرهان قاطع على وجودها)[٤]. مع الاحتفاظ بأن التعليل الأول أبلغ وأظهر.

وسواء كان هذا التعليل أم ذاك فإن المعجزات لا تدل على ألوهية المسيح بل تدل على كونه رسولا من عند الله، اصطفاه الله سبحانه وتعالى وأيده بالمعجزات لتكون

---

(١) حياة المسيح ص ٤١ ، ٤٢.
(٢) د/حنا جرجس الخضرى: تاريخ الفكر المسيحى ص ١٦.
(٣) المرجع السابق ص ٨٨.
(٤) محاضرات فى النصرانية ص ٢٦.

دليل صدق نبوته وبرهان رسالته مثله كمثل الأنبياء الآخرين، وهذه المعجزات لا تخرجهم عن طوق البشرية، ذلك أنهم اعترفوا بأن الخوارق من عند الله، وكذلك عيسى اعترف بأن الخوارق التى تقع على يديه إنما هى بإذن الله وقدرته جلت حكمته، وبين لهم أن هذه المعجزات ليست مقصوده لذاتها وإنما الهدف منها حمل التاس على التصديق بالرسالة (إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين).

واعترف بالعبودية لله عز وجل ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (سورة المائدة الآية: ٧٢) ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (سورة مريم الآية: ٣٠).

وقد تبين بذلك المعنى الصحيح من ولادته عليه السلام من عذراء ومعجزاته فلا دلالة فيهما على الألوهية بأى حال من الأحوال.

ما معنى المسيح كلمة الله وروح منه؟

بقى أن نبين معنى إطلاق القرآن الكريم على المسيح كلمة الله وروح منه وذلك فى قوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٤٥).

وقوله ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟[1] فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (سورة النساء الآية: ١٧١).

ذلك أنه لا شبهة فى إطلاق القرآن الكريم على المسيح (كلمة الله) و (روح منه) حيث إن هذا الإطلاق لا يدل على الألوهية ولا يشعر بكون المسيح خارجا عن طوق البشرية.

معنى كلمة الله ـ

يقول الزمخشرى: قيل لعيسى كلمة الله، وكلمة منه لأنه وجد بكلمته وأمره لا غير من غير واسطة أب ولا نطفة،[2].

---

(١) يقول الزمخشرى. غلت اليهود فى حط المسيح عن منزلته، حيث جعلته مولودا لغير رشده ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء الآية: ١٥٦) وغلت النصارى فى رفعة عن مقداره حيث جعلوه إلها. أ.هـ الكشاف جـ١ ص ٥٨٤.

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٥٨٤.

وهذا المعنى هو المشهور بين العلماء ويدل عليه قوله ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (سورة يس الآية: ٨٢).

وقوله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٥٩). فخلق عيسى وآدم بقوله كن[١].

ولقد توسع بعض العلماء فى معانى إطلاق "كلمة الله" على المسيح.

يقول صاحب تفسير المنار: وفى لفظ (كلمة) أربعة وجوه:-

الوجه الأول: أن المراد بالكلمة كلمة التكوين لا كلمة الوحى؛ ذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن البارى عز وجل مما يعلو عقول البشر عبر عنه سبحانه بقوله ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (سورة يس الآية: ٨٢).

فكلمة (كن) هى كلمة التكوين.

ويقال: إن كل شئ قد خلق بكلمة التكوين، فلماذا خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه؟

وأجيب عن ذلك: بإن الأشياء تنسب فى العادة والعرف العام فى البشر إلى أسبابها، ولما فقد فى تكوين المسيح وعلوق أمه به ما جعله الله سببا للعلوق، وهو تلقيح ماء الرجل لما فى الرحم من البويضات التى يتكون منها الجنين أضيف هذا التكوين إلى كلمة الله، وأطلقت الكلمة على المكون إيذانا بذلك، أو جعل كأنه نفس الكلمة مبالغة، وهذا هو الوجه المشهور.

الوجه الثانى: أنه أطلق على المسيح للإشارة إلى بشارة الأنبياء به، فهو قد عرف بكلمة الله أى بوحيه لأنبيائه - قاله الأستاذ الأمام - والكلمة تطلق على الكلام كقوله ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (سورة الصافات الآية: ١٧١).

الوجه الثالث: أنه أطلق عليه لفظ الكلمة لمزيد إيضاحه لكلام الله الذى حرفه قومه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه، وجعلوا الدين ماديا محضا - قاله الرازى[٢]

---

(١) كتاب خلق الأفعال للبخارى (عقائد السلف) ص ١٣٦.

(٢) راجع مفاتيح الغيب جـ٢ ص ٥٢.

وجعله من قبيل وصف الناس للسلطان العادل بظل الله ونور الله؛ لما أنه سبب لظهور ظل العدل ونور الإحسان قال: فكذلك كان عيسى سببا لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته له وإزالة الشبهات والتحريفات عنه.

الوجه الرابع: ـ أن المراد بالكلمة كلمة البشارة لأمه فقوله (بكلمة منه) معناه: بخبر من عنده أو بشارة وهو كقول القائل: ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها، بمعنى أخبرنى خبرا فرحت به، قاله ابن جرير[١]. واستشهد له بقوله ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ (سورة النساء الآية: ١٧١). يعنى بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها.

قال فتأويل القول فى قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[٢] (سورة آل عمران الآية: ٤٥). أى وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده هى ولد لك اسمه المسيح عيسى بن مريم.

ثم قال مستدلا على هذا ما نصه: ولذلك قال الله عز وجل ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ﴾ فذكرَّ ولم يقل اسمها فيؤنث و"الكلمة" مؤنثة؛ لأن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم الذى هو بمعنى فلان، وإنما هى بمعنى البشارة، فذكرت كنايتها كما تذكر كناية الذرية والدابة والألقاب إلى آخر ما أطال به فى المسألة من جهة العربية)[٣].

والوجه الأول هو المشهور بين العلماء.

فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له ﴿ كُنْ ﴾، فكان عيسى بكن، وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان، فالكن من الله قول، وليس الكن مخلوقا[٤].

ومعنى ﴿ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أى أوصلها إليها وبلغها إليها[٥].

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٩٠.

(٢) وتفسير الجمهور ـ القائل بالوجه الأول لهذه الآية (أن الله يبشرك بولد يكون وجوده بكلمة من الله أى يقول له كن فيكون) راجع المرجع السابق جـ١ ص ٣٦٣.

(٣) تفسير المنار جـ٣ ص ٢٥٠.

(٤) كتاب الرد على الزنادقة والجهمية لابن حنبل (عقائد السلف) ص ٨٣.، راجع الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ١ صـ١٧٣.

(٥) تفسير المنار جـ٦ ص ٦٨.

يقول الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه (كذبت النصارى على الله فى أمر عيسى حيث قالوا إن عيسى روح الله من ذات الله وكلمته من ذات الله كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب. وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة)[١]. فعيسى خلق بالكلمة (كن) وليس هو الكلمة.

وهذا هو معنى إطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام.

معنى (وروح منه):-

أما معنى قوله تعالى عن عيسى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أى من أمره سبحانه كان الروح فيه[٢]. فالروح عبارة عن نفخة جبريل (ومنه) يعنى أن ذلك النفخ من جبريل كان بأمر الله وإذنه.

ولقد ذكر الفخر الرازى معانى أخرى لإطلاق الروح على عيسى.

يقول وأما قوله "وروح منه" ففيه وجوه:-

الأول: أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئا بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روح. فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح.

والمراد من قوله (منه) التشريف والتفضيل، كما يقال هذه نعمة من الله، والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة.

الثانى: أنه كان سببا لحياة الخلق فى أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روح. قال تعالى فى صفة القرآن ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ سورة الشورى الآية: ٥٢.

الثالث: روح منه أى رحمة منه، قيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ سورة المجادلة الآية: ٢٢). أى برحمة منه

قال عليه الصلاة والسلام **(إنما أنا رحمة مهداة)**[٣]. فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث إنه كان يرشدهم إلى مصالحهم فى دينهم ودنياهم لا جرم سمى روحا منه.

---

(١) عقائد السلف ص ٨٧.

(٢) المرجع السابق ص ٨٣.

(٣) رواه الدارمى فى مسنده جـ١ باب كيف كان شأن النبى ﷺ ط - دار المحاسن. وبرواية أخرى (أنا محمد نبى الرحمة) فى صحيح مسلم فى باب: الفضائل، والترمذى فى باب: الدعوات.

الرابع: أن الروح هو النفخ فى كلام العرب، فإن الروح والريح متقاربان.

فالروح عبارة عن نفخة جبريل، وقوله (منه) يعنى أن ذلك النفخ من جبريل كان بأمر الله وإذنه فهو منه، وهذا كقوله ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٩١).

الخامس: ـ قوله (روح)أدخل التنكير فى لفظ (روح) وذلك يفيد التعظيم، فكان المعنى: وروح من الأرواح الشريفة القدسية العالية.

وقوله (منه) إضافة لذلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتعظيم)[١].

والمعنى الواضح والتى تدل عليه الآيات هو أن المسيح خلق بالنفخ، وأن هذه النفخ كان من جبريل بأمر الله.

ويوضحه قوله تعالى عن مريم ﴿ وَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ (سورة الأنبياء الآية : ٩١) وقوله ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ (سورة التحريم الآية : ١٢).

ويدل عليه أيضا: أن القرآن الكريم بين أن آية الله تعالى فى خلق عيسى كآية خلقه لآدم؛ إذ خلق كل منهما بكلمة (كن).

ولما كان معنى المسيح (كلمة الله) أى خلق بكلمة كن ، مثله فى ذلك كمثل آدم، فإن معنى (وروح منه) أى بنفخ من روح الله أيضا، كما كان آدم أيضا بنفخ من روح الله ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (سورة الحجر الآية: ٢٩).

وعلى ذلك فإن معنى (من) فى قوله تعالى (وروح منه) : لابتداء الغاية مجازا وهى متعلقة بمحذوف وضع صفة لروح، أى كائنة من جهته تعالى جعلت منه وإن كنت بنفخ جبريل لكون النفخ بأمره سبحانه[٢].

زعم بعض النصارى أن (من) للتبعيض، بمعنى أن عيسى جزء من الله، بمعنى أنه ابنه، وهو باطل.

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١١ ص ١١٧.

(٢) إرشاد العقل السليم جـ١ ص ٦١٢.

وقد نقل المفسرون أن طبيبا نصرانيا للرشيد ناظر على بن حسين الواقدى المروزى ذات يوم فقال له: إن فى كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية، فقرأ له الواقدى قوله تعالى:-

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (سورة الجاثية الآية: ١٣).

وقال: يلزم إذن أن تكون جميع هذا الأشياء أجزاء منه تبارك وتعالى، فانقطع النصرانى وأسلم، ففرح الرشيد بإسلامه، ووصل الواقدى بصلة فاخرة[١].

وبذلك يتبين المعنى الصحيح لقول الله عن عيسى (وروح منه) أى بأمره سبحانه وتعالى كان الروح فى عيسى.

❖ ❖ ❖

وبذلك يتبين أن عيسى بن مريم رسول الله أيده الله ببعض الآيات لتكون دليلا على رسالته، ولم يخرج عيسى عن طوق البشرية.

فهو بشر مثله كمثل الأنبياء، وأن ما أطلق عليه من كلمة الله وروح منه لا تدل على الألوهية، وإنما تدل على أن عيسى خلق بكلمة الله (كن)، وكان الروح فيه بأمر الله سبحانه وتعالى.

وعلى ذلك بطل القول بألوهية المسيح، ذلك أن القوم لا دليل معهم - نقلى ولا عقلى على هذا الاعتقاد.

فهم قد اعتقدوا بما لم ينزل الله به سلطانا، واتبعوا أهواءهم فضلوا، وأضلوا، وضلوا عن سواء السبيل.

إبطال دعوى صلب المسيح

كان يكفى أن نعرف أن إبطال ألوهية المسيح يترتب عليه إبطال الصلب وما يتبعه ولكن القرآن الكريم بين أن المسيح لم يصلب، وذلك دفعا لتوهم القائل:

إذا لم يكن المسيح إلها فكيف نفسر صلبه؟

يبين القرآن الكريم أن المسيح ليس إلها ولم يصلب.

---

(١) نفس المرجع، نفس الصفحة.

ذلك أن القرآن الكريم كما أبطل الأسس التى بنى النصارى عليها عقيدة الخلاص فبين أن آدم تاب من ذنبه، وأن كل إنسان يحمل وزر نفسه وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فإنه كذلك أبطل النتيجة التى رتبوها عليها، وهى: أن صلب المسيح كان فداء عن البشرية، فأبطل الصلب، وبإبطال الصلب يبطل أن يكون فداء عن البشرية.

ولقد نفى القرآن الكريم الصلب فى موضعين من آى الذكر الحكيم.

الموضع الأول: بيان أن اليهود اجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فصانه الله من ذلك، فلقد بين القرآن الكريم أن اليهود تآمروا على قتل المسيح وصلبه ولكن الله نجاه.

يقول سبحانه ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (سورة آل عمران الآيات: ٥٢ ـ ٥٥).

والآيات تفيد أن اليهود الذين أحس عيسى منهم الكفر قد دبروا المؤمرات لقتله واتخذوا كل الوسائل لتنفيذ هذا المأرب الذميم؛ محاربة منهم لله ولرسوله عيسى عليه السلام كما فعل أسلافهم بالأنبياء الآخرين، فأبطل الله تدبيرهم، وأحبط كيدهم، فلم ينجحوا فيما أرادوا بل نجى الله نبيه عيسى ـ عليه السلام ـ من شرورهم.

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾[1].

---

(١) قال الفخر الرازى: أصل المكر فى اللغة: السعى بالفساد فى خفية ومداجاة، قال الزجاج يقال: مكر الليل وأمكر إذا أظلم، وقال الله تعالى(**وإذ يمكر بك الذين كفروا**) وقال (**وما كانت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون**) وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه ومنه: امرأة ممكورة أى مجتمعة الخلق وإحكام الرأى يقال له الإجماع والجمع قال الله تعالى ﴿ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ فلما كان المكر رأيا محكما قويا مصونا عن جهات النقص والفتور لا جرم سمى مكرا) مفاتيح الغيب جـ٨ ص ٧٢. =

أى مكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر به فحاولوا قتله، وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه، وعبر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكلة، كذا قاله الجمهور وأقره الأستاذ الإمام[١].

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ أى أحكمهم تدبيرا أو أنفدهم كيدا وأقدرهم على عقاب الآثمين من حيث لا يشعرون وإنجاء الشرفاء المصلحين بله الأنبياء والمرسلين من أيدى الطغاة المفسدين العابثين[٢].

فالآيات تفيد أن المسيح وإن قصد وطلب فإنه ما قتل وصلب؛ لأن الله نجاه من أيدى هؤلاء الماكرين.

الموضع الثانى: ينفى القرآن الكريم أقوال اليهود الذين شهدوا الصلب وقالوا إنا قتلنا المسيح ـ وأقوال النصارى الذين أخذوا عن اليهود ـ ويبين أن المسيح لم يقتل ولم يصلب يقينا لا شك فيه.

يقول سبحانه عن اليهود وتاريخهم الأسود ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (سورة النساء الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٨).

والآيات السابقة تنفى القول بقتل المسيح وصلبه عامة، سواء كان هذا القول من اليهود أو النصارى، وهو موجه أولا وفى المقام الأول إلى اليهود ـ ذلك أنه إذا انتفى

= ثم يقول (والمكر عبارة عن الاحتيال فى إيصال الشر، والاحتيال على الله محال فصار لفظ المكر فى حقه من المتشابهات وذكروا فى تأويله وجوها: أحدها: أنه تعالى سمى جزاء المكر بالمكر، كقوله(وجزاء سيئة سيئة مثلها) وسمى جزاء المخادعة بالمخادعة وجزاء الاستهزاء بالاستهزاء. والثانى: أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسمى بذلك.

الثالث: أن هذا اللفظ ليس من المتشابهات؛ لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل، ثم اختص فى العرف بالتدبير فى إيصال الشر إلى الغير، وذلك فى حق الله غير ممتنع والله أعلم) المرجع السابق جـ٨ ص ٧٣.

(١) تفسير المنار جـ٣ ص ٢٥٩.

(٢) العقائد المسيحية بين القرآن والعقل ص ٢٧٦.

قول اليهود فبالأولى ينتفى قول النصارى ـ فى قولهم (إنا قتلنا المسيح) وذلك لأنهم هم الذين شهدوا الصلب ويدعون أنهم صلبوه وقتلوه، لذلك نجد أن القرآن الكريم يمهد إلى نفى قولهم بصلب المسيح ببيان تاريخهم الأسود وبيان خصال السوء المتأصلة فيهم ـ من نقض الميثاق، والكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا غلف[1] والحق أن الله طبع عليها بسبب كفرهم، وكذلك أيضا. القول الزور الذى قالوه عن مريم وبرأها الله سبحانه وتعالى منه، وكذلك أيضا قولهم بقتل المسيح وصلبه، ورد الله عليهم بأنهم ما قتلوه وما صلبوه ـ وذلك لبيان أن ديدنهم الكذب والافتراء، فكذبهم فى قولهم "إنا قتلنا المسيح" ليس غريبا على طبيعتهم، التى تحمل فى طياتها الكذب والافتراء والكفر بالله والبعد عن الحق والصواب والميل إلى الافتراء والقول الزور.

فاليهود بقولهم "إنا قتلنا المسيح" ساروا على الطريق الذى ساروا فيه مع أنبيائهم من الكفر بهم وبرسالاتهم والكذب عليهم.

ومعنى الآيات السابقة: أى فسبب نقض أهل الكتاب الميثاق الذى واثقهم الله به إذ نكثوا فتله، وأحلوا ما حرم، وحرموا ما أحل، وكفرهم بآيات الله التى أراهم منها ما لم يره سواهم، وقتلهم الأنبياء الذين بعثوا لهدايتهم كزكريا ويحيى عليهما السلام، وقولهم قلوبنا غلف، وغير ذلك من سيئاتهم ـ التى يذكر أهم كبائرها فى الآيات ـ أى بسبب هذا كله فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والغضب وضرب الذلة والمسكنة وإزالة الملك والاستقلال؛ لأن هذه الذنوب قد فرقت نسيج وحدتهم،

---

(١) ذكر المفسرون وجهين لمعنى هذا القول: أحدهما: أن "غلف"جمع أغلف وهو الذى عليه غلاف يمنع نفوذ الشئ أى أن قلوبهم لا ينفذ إليها شئ مما جاء به الرسول فهى لا تدركه وهو لا يؤثر فيها كما حكى الله تعالى عن المشركين ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ (سورة فصلت الآية: ٥).

وثانيهما: أنه جمع (غلاف) ككتاب وكتب، وسكنت اللام فيه كما تسكن فى الكتب والرسل، والمعنى: أنهم أوعية وغلف للعلوم والمعارف، فهى لا تحتاج إلى شئ جديد تستفيده من الرسول أو من غيره. وقد رد الله تعالى هذا الزعم بقوله "بل طبع الله عليها بكفرهم" أى ليس ما وصفوا به قلوبهم هو الحق الواقع بل طبع الله عليها بكفرهم أى كان كفرهم الشديد وما له من الأثر القبيح فى أخلاقهم وأعمالهم سببا للطبع على قلوبهم. راجع: مفاتيح الغيب جـ١١ ص ٩٩، تفسير المنار جـ٦ ص ١٥.

وفرقت شمل أمتهم، وذهبت بريحهم وقوتهم، وأفسدت جميع أخلاقهم، فكل ما حل بهم من البلاء هو أثر ذلك النقض والكفر والعصيان[١].

ومن سيئاتهم التى تذكرها هذه الآيات (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أى وبسبب قولهم هذا، فإنه قول يؤذن بمنتهى الجرأة على الباطل والضرورة بارتكاب الجرائم والاستهزاء بآيات الله ورسله، ووصفه هنا بصفة الرسالة[٢] للإيذان بتهكمهم به عليه السلام، واستهزائهم بدعوته، وهو مبنى على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم لا الألوهية، ويجوز أن يكون قوله (رسول الله) منصوبا على المدح أو الاختصاص، للإشارة إلى فظاعة عملهم ودرجة جهلهم وشناعة زعمهم (وما قتلوه وما صلبوه) أى والحال أنهم ما قتلوه كما زعموا تبجحا بالجريمة وما صلبوه كما ادعوا وشاع بين الناس (ولكن شبه لهم) أى وقع لهم الشبهة أى الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى وإنما صلبوا غيره[٣].

فالمسيح لم يقتل ولم يصلب ولكن شبه لهم.

اختلف العلماء فى معنى قوله (ولكن شبه لهم).

فقيل المعنى: ولكن شبه لليهود الذين صلبوه بأن ألقى الله شبهه على غيره فصلبوا الشبه.

وقيل المعنى: ولكن شبه للنصارى - أى حصلت لهم الشبهة فى أمره وليس لهم علم بأنه ما قتل وصلب، ولكن لما قال أعداؤه - اليهود - أنهم قتلوه وصلبوه صدقهم النصارى فى صلبه[٤].

---

(١) تفسير المنار جـ ٦ ص ١٤.

(٢) يقول الإمام الرازى: فإن قيل اليهود كانوا كافرين بعيسى أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة، الفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله؟ والجواب عنه من وجهين.

الأول: أنهم قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة الشعراء الآية: ٢٧) وكقول كفار قريش لرسول الله ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة الحجر الآية: ٦).

والثانى: أنه يجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعا لعيسى عليه السلام عما كانوا يذكرونه به/مفاتيح الغيب جـ١١ ص ١٠١.

(٣) تفسير المنار جـ٦ ص ١٦.

(٤) هداية الحيارى ص ٣١٤.

والقول الأول هو قول الجمهور[١]. وهو الذى تدل عليه الآيات حيث إنها تنفى قول اليهود "إنا قتلنا المسيح" بأنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم بأن ألقى الله شبهه على غيره فصلبوا الشبه ولم يصلبوا عيسى عليه السلام.

وعلى هذا القول فإن نفى القرآن الكريم لقول اليهود بصلب المسيح نفى أيضا من باب أولى لاعتقاد النصارى بصلب المسيح. ذلك أن المسيح لم يقتل ولم يصلب.

ثم تذكر الآيات بعد ذلك ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ أى وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب فى شك من حقيقة أمره أى فى حيرة وتردد، ما لهم به من علم ثابت قطعى لكنهم يتبعون الظن[٢]. ﴿ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ أى وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين[٣].

يقول صاحب تفسير المنار (وما قتلوا عيسى مريم قتلا يقينا أو متيقنين أنه هو بعينه، لأنهم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة، وهذه الأناجيل المعتمدة عند النصارى تصرح بأن الذى أسلمه إلى الجند هو يهوذا الإسخريوطى، وأنه جعل لهم علامة أن من قبله هو يسوع المسيح فلما قبله قبضوا عليه .. فالجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية. وقيل إن الضمير فى قوله تعالى (وما قتلوه يقينا) للعلم الذى نفاه عنهم.

والمعنى ما لهم به من علم لكنهم يتبعون الظن وما قتلوا العلم يقينا وتثبيتا بل رضوا بتلك الظنون التى يتخبطون فيها. يقال : قتلت الشئ علما وخبرا إذا أحطت به واستوليت عليه حتى لا ينازع ذهنك منه اضطراب ولا ارتياب.

روى عن ابن عباس أنه راجع إلى الظن الذى يتبعوه قال (لم يقتلوا ظنهم يقينا) رواه ابن جرير، أى أنهم يتبعون ظنا غير ممحص ولا موفى أسباب الترجيح والحكم التى توصل إلى الحكم)[٤].

---

(١) راجع الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ١ ص ٣١٣.
(٢) تفسير المنار جـ٦ ص ١٦.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٧٤.
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص١٧.

والحاصل أن جميع روايات المسلمين متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أيدى مريدى قتله فقتلوا آخر ظانين أنه هو.

فالحق الذى لا مرية فيه أن المسيح لم يقتل ولم يصلب حيث نجاه الله من أيديهم ورفعه إليه.

وقد اختلف العلماء فى معنى هذا الرفع.

فالجمهور: أن الله سبحانه وتعالى رفعه بجسمه وروحه إليه وأخذوا بظاهر قوله تعالى فى مقابل القتل (بل رفعه الله إليه) وببعض الأحاديث التى وردت فى ذلك وفريق آخر قالوا: إنه عاش حتى توفاه الله تعالى كما يتوفى الأنبياء ورفع روحه إليه كما ترفع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء وأخذوا فى ذلك بظاهر قوله تعالى ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٥٥) وبظاهر قوله ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة المائدة الآية: ١١٧).

ولكن منهما وجهة هو موليها[1].

ولا نحب أن ندخل هنا فى تفصيل أدلة كل منهما وترجيح أحدهما على الآخر، لأن الشئ الذى يهمنا هنا أن الله سبحانه وتعالى نجى المسيح من أيدى الأعداء ورفعه إليه، ولكن هل الرفع بالجسد والروح معا؟ أو بالروح فقط؟ فهذا قد اختلف فيه.

ولترجيح رأى أحد الفريقين موضع ليس هذا مقامه.

ما يترتب على نفى الصلب

يترتب على نفى الصلب نفى الغاية التى ألصقها النصارى بدعواهم بصلب المسيح فداءً عن البشرية.

فالمسيح لم يصلب ولم يفد أحد، فالكل مسئول عن عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر وبإبطال الصلب يبطل الاعتقاد بقيامة المسيح.

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص ٢٦.

وعلى ذلك فإن موقف الإسلام من عقيدة الخلاص المسيحية.

أنها عقيدة فاسدة لأنها قامت على أسس فاسدة.

فآدم تاب من ذنبه والله سبحانه وتعالى تاب عليه.

والإسلام يجلى هذا فيبين أن آدم مسئول عن ذنبه ـ على فرض أنه أذنب ـ وحده وأن كل إنسان مسئول عن عمله يحاسب عليه وحده لا غير، فكل إنسان على نفسه بصيرة، وكل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

فآدم وحده هو المسئول عن عمله لا الجنس البشرى المتناسل منه، ذلك لأن كل إنسان بعمله يحاسب ويجازى.

ثم يتجلى موقف الإسلام أكثر وأكثر حينما يتبين موقفه من النتيجة التى افتعلوها وأخذوها من الوثنية وهى جعل المسيح إلها وصلبه وقيامته من أجل البشرية.

فيبطل الإسلام ذلك فيبين أن المسيح ما دعا إلا إلى توحيد الله وحده لا شريك له وأن الذين يقولون بغير التوحيد هم قوم كافرون بالله وبرسوله ؛ حيث لم يقل المسيح ذلك فالنصارى قد كفروا بالله حين قالوا إن المسيح هو الله وإنه ابن الله حيث إنهم تقولوا على الله ورسوله ما لم ينزل به سلطانا.

ثم يبين الإسلام أن المسيح لم يصلب، وذلك ليهدم العقيدة فى أسسها ونتائجها، وليبين لهم فساد عقيدتهم من بدايتها إلى نهايتها.

obeikandl.com